دار روافد للنشر الإلكتروني

بقعة

الدواليك

رواية

عبلة قدوار

نوع العمل: رواية

اسم العمل: بقعة الدواليك

اسم المؤلف: عبلة قدوار

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى يوليو 2017

تصميم الغلاف: مروان محمد

تدقيق لغوى: عبلة قدوار

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم و مقترحاتكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

رواية

بقعة الدواليك

عبلة قدوار

بقعة الدواليك ، هي قرية تجمعّت شخوصها في مخيلتي لتحاكي واقعا فقدناه بعيدا عن أمور الدين والسياسة والصراع الذي يأكل العالم الآن ليس لأنه بمعزل عنه ، بل لم تحاول أي شخصية أن تتمرد عن حال بقعة الدواليك وتعايش تفاصيله.

فهي بقعة تجمعت فيها كلّ أطر التواصل والإتحاد فمثّلها خير تمثيل أهل تلك القرية بكلّ ما فيهم من خير وشرّ ، مترابطين فبات الواحد يمثّل الكلّ وهو ليس بمعزل نهائيا عمّ يحدث للآخر ... وبذلك تدعوا شخوص بقعة الدواليك القارئ لها ليتعرف أنّه وفي زمن ما كانت أبواب البيوت لا تغلق فيستقبل الساكن جاره حتى وإن كان قد أقدم البارحة على الشجار معه ، ليتعلّم الحب ببساطته وكيف يجعله يغفر الأخطاء ويعيش بنقاء .

بقعة الدواليك ... تحاكي الطمأنينة الاجتماعية التي نفتقدها كثيرا في عصرنا هذا ، وربما ضياعها هو سبب ما يحدث اليوم من فرقة وشتات ، وبزوغ فجر جديد نتغنى فيه بأنّ البقاء للأقوى ، ولا يهم إن كان فردا أو جماعة ، شتان بين ما يحدث في هذه البقعة وما يحدث اليوم ، فنحن نتطور أكيد

ونفتتح على العالم ونندمج فيه لكن بالفرقة والغدر وممارسة كلّ الطقوس المسيئة لكلّ ما هو إنساني ، فنجد هارون ورغم حبّه لذاته إلّا أنّه استطاع أن يجد مركزا مهما في يوميات تلك البقعة محافظا كلّ الحفظ على قوة عائلته في اتحادها وتقبل بعضهم البعض ، قد يعود الفضل في ذلك لزوجته خديجة وهي الركن الذي ينزوي له كلّ الأولاد في انشغالاتهم وقراراتهم ، ورغم ذلك يبقى هارون سيد البيت الذي لم يناقش يوما في قرار أصدره . بينما نجد الأب اليوم انحصرت قوته في حجم الراتب الذي يدخل به البيت نهاية كلّ شهر ولا يهمّ أبدا من أين حصل عليه ولا حتى كيف ، إن كان صالحا بعض الشيء سيكون لمصاريف البيت ، وقد يوزع عشوائيا بين الأكفّ الممتدّة والمحلقة حوله ، دون أن يعرف ماهية المطالب أبدا ، وخاصة أنّه عليه أن يفكر في ملبسهم ومأكلهم ودوائهم فأين ينفق المال الذي كان قد وزّعه منذ لحظات ، أما الذين يشبهون هارون بعض الشيء فهم يجمعون رواتبهم ورواتب أولادهم خاصة البنات منهم ليشّيد أحلامه التي لم يقدر عليها دون وجودهم . فينصرف هؤلاء

الأولاد لتحقيق ذواتهم في ظلّ المفاهيم المغلوطة لأجل إعطاء صورة أخرى للحياة على كوكب الأرض .

وبهذا كل ساكن بتلك البقعة يعطينا نموذجا لما فقدناه ولما علينا أن نتخلى عنه .

بمجرّد أن اقتربت سرعة السيارة من منحدر الجبل الذي يعتبر الحدّ الفاصل بين الحياة التي تربط الإنسان بالإنسانية ، وأيام الدواليك التي ستضطر خديجة لمسايرتها ، والمضي قدما تعدو وإياها دون أن تتجرأ وتتخطاها وتضيف لها وقعا ... لأنّ ذلك محض جنون أو مجلبة لصداع الرأس ، لأن خديجة وبالرغم من أنّها تخطت حدود الأمومة لطفل أو طفلين بعد العشر ولادات ، إلاّ أنّها لم تتجرأ يوما على الوقوف عند عتبة باب منزلها لتنادي بأحد أولادها عند الحاجة ، فذلك خرق لقواعد المنطقة ، وتوسم لحظتها في خانة الملعونات والخارجات عن الأدب ،محققة في حياتها الزوجية ، مفهوم أن وراء كل رجل عظيم امرأة شرسة ، لأن زوجها هارون كان رشيد تلك الأيام لسكان القرية وكذلك أبناءه ، فقد كان الرجل الكامل في كل أدوار الحياة ...

خديجة وهي تنزل ذلك المنحدر تغادر الإنسانية داخلها ، وتحلّ محلها الشراسة ، واعتبار الأمومة حلما لن يتحقق لأولادها السبعة جميلة عمر زينب مباركة كمال عائشة حيزيه، وهم عائدون للدّيار من عطلة الصيف في مدينة عنابه ،عطلة تمكن البحر فيها من أن ينجيهم من كبت

لأحاسيسهم ورغباتهم في ظلّ الصراع القائم بين خديجة وهارون الرشيد ، هذا الأخير الذي كلّما يمرّ الزمن يعجز أولاده عن فهم تفكيره ومنهجه في الحياة وزوجته التي لا تتخلى عن لحظة دون أن تحطّمن قدره كما تفعل وأولادها الذين قد زفّت منهم للحياة الزوجية نصيبا ، بينما سافر البعض لإيجاد حياتهم بعيدا عن ذلك الصراع الأزلي الذي لم تنطفئ ناره يوما ، بينما أطفأ الكثير من أحاسيس الأبناء ، وحقّهم في الوجود لأجل وجدانهم ، وليس لأجل طقوس هارون وخديجة ، وهم الذين برمجوا منذ تكوينهم أنّهم خلقوا ليكونوا الذخائر التي يقذف بها كل من خديجة وهارون بعضهما البعض .

فخديجة وهي تنزل المنحدر ، حدث وأن أتتها حالة من رقّة الأمومة تعترف لأولادها أنّها لأجلهم تعود لهذه القرية ، فيتبادر إلى ذهنهم أنهم أعز ما تملك فيمنحونها الطاعة لكلّ أمر ، وهي التي لم تعلّمهم يوما كيف يمنحونها حب الأبناء ، ولا يسعهم إلّا تذكر شراستها وهي تلّعنهم لأنّهم وجدوا فجعلوها تذل بالعودة إلى هارون والعيش مع ظلمه وكأنّها خياراتهم في الوجود في أن يكونوا أبناءهم ،بالإضافة أنّها

لا تنسى أبدا تحميل والدها المسؤولية وقد توار تحت التراب في العام الثاني من زواجها ، في كونه السبب الرئيسي في ذلّها لأنّه كان مرارا يرجعها لهارون على اعتبار أن الأيام ستجعله رجلا عاقلا ، لا يمدَ يده على زوجته كما أنّه سيتخلى عن البخل لأجل أولاده .

مات الجدّ وما كان على أحفاده مع مرور الزمن واكتشافهم لهذا الجرح الرهيب داخل والدتهم ـ صراع هي الوحيدة المتسببة فيه ـ إلاّ أن يدعوا لجدَهم بالرحمة لأنّهم لم يتعرفوا عليه ليحبوه ، فأشفقوا على حاله تحت التراب والشفقة مقدار قريب إلى المحبة ، لأنّهم لم يتقبلوا من والدتهم ذلك ، ولطالما رأوها ورغم الذي يحدث لها من مهانة وإذلال من هارون إلّا أنّها لا تنفك أن تكون سجادة يمشي عليها .

وهم يكبرون تعلّموا كيف يعدمون حقوقهم وهم تحت رعايتها وأن يشعروا بالشفقة عليها ، لأنّها ورغم أنّها صرحت لهم بأنّها لا تحتاجهم بقدر حاجتها لهارون ، فهو الذي ستكمل دربها وإياه ، إلّا أنّها لم تقدر على أن ترضى بالاعتراف النهائي لحبّها له ، وهي تلعنه كل لحظة ولا أن تستدرك كل وقتها وتعلَم أولادها كيف يعبّرون عن حبّهم لها .

تنزل السيارة المنحدر ، وبعد دقائق تتوقف عند باب بيتها ، ينشغل هارون بإيقاف محرك السيارة ، بينما أخذ الأولاد في النزول فرحين بالعودة إلى منزلهم ، وبمجرد نزول عمر يصرخ لفرحه بالترميم الذي لحق مصلى القرية ، تعالت عبارات الفرح والإعجاب بين الأولاد ، والوالدة بصوتها المسيطر دائما :

ـ أدخلوا المنزل ... ما يفرحكم في قرية النحس هذه ، إنها كسعدكم وسعدي تبقى مشئومة وإن غيروا كل ألوان البيوت والشوارع .

انصاع الأولاد لأمرها ودخلوا المنزل بعد أن فتحت زينب قفل الباب ، ليدخلوا أمتعتهم في حين لا يزال هارون منشغلا بمحرك السيارة .

خديجة تحبط مخططه في لحظة معبّرة فيها عن إشفاقها لحال أولادها وغيظها .

ـ هذا والدكم عند الحاجة إليه ينشغل بأمر ما إلى أن تنتهي الأعمال ...لا يرحم ولا يترك رحمة الله تنزل .

يتفرق الأولاد لشؤونهم داخل المنزل ، عمر وهو ابن الثامن عشر يتوجه مباشرة إلى جهاز الكمبيوتر ليتفقده ، ويصرخ مطالبا بالإسراع في إعداد القهوة .

أخواته البنات يعلّن تمردّهن ويرددن : ـ المطبخ أمامك نحن متعبات كحالك ـ مالك ومال هذه الشطارة ...الغبار يملأ المكان وأنت تسرع لفتح الكمبيوتر .

أما كمال فقد أسرع ومباركة وعائشة إلى شجرة الكرم بالحوش لقطف ما بقي عالقا في أغصانها ، وفي قمّة الالتذاذ يدخلان الغرف تارة ، ويتمتعان بتسلق الشجرة تارة أخرى ، مثيرين لذة البقية لما يحصلان عليه من حبات التين ، وما هي إلّا دقائق حتى تخور قواهم ويأخذ كل واحد مكانه لينام فيه ، بعد أن تفقد الجميع الأفرشة بحثا عن عقارب وحيّات ، مستسلمين لنوم التعب إلى أن غابت الشمس ، وحين استيقظوا كانت زينب ووالدتها قد أعدّتا العشاء ، في حين قد خرج الوالد لطلب الماء من مصالح البلدية لكنّه لم يجد من يحضر له الماء ، فاضطروا لاستعمال الماء القديم بعد غليه جيدا .

عائلة هارون من العائلات القليلة المحظوظة في مغادرة تلك القرية في فصل الصيف ، وإن كان الأمر مرات لا يتجاوز الأسبوع كما حدث هذه المرة ، وقد كان أولاد القرية يحسدونهم على ذلك ، لأنّ حظَهم وهم أولاد القرية كان في بركة الماء التي تتحجر في موطن ما من الوادي ، قد تجفّ أحيانا جراء الحرارة أو قد يكونوا امتلكوا حوضا للسباحة داخل أحد البيوت في شاكلة صهريج من الطوب يستعمل عادة لتخزين الماء ، لكن أهل ذلك البيت قد رحلوا ولم يفكروا في تعطيل حنفية بيتهم ، أو كما كانت تفعل خديجة لأطفالها حين تجمع الماء في زاوية من الحوش وتتركهم يمرحون فيها .

أولاد خديجة كانوا يعتبرون الذهاب بعيدا عن القرية أمرا مقدسا ، لكن ومع مرور سنوات عمرهم يكتشفون أنّهم ورفقة والدتهم التي تبقى تصب جام غضبها في عدم تحصيل ما تريده من هارون على أولادها ، سواء بالقرية القاحلة أو بمدينة عنابه أو جيجل بمنزل في أفقر الأحياء تبقى سطوتها ، تبقى تمرّر سخطها من بخّل هارون ، ذلك البخل الذي اقتنع أولاده أنّه ليس حبا في المال وإنّما حبا للتباهي أمام أصحابه

والأغراب ، فيسّرف في ماله دون النظر لحاجات أولاده ، تلك الحاجات التي كانت تمنيهم والدتهم بها حين يساعدونها في التقشف داخل البيت ، فأي درجة بعد البخل يمكن أن توصف بها والدة الأولاد بعد بخّل مقتنص شخصية هارون الرشيد .

صباح مشرق يعمه شيء من الريح الخافت على غير عادته في تلك المنطقة الجبلية القاسية ، التي إن هبَت ريحها فحتما يمكنها أن تقتلع أشجار المناطق السهوبية ، ليهمس عبر

ثقوب الجدران والأسطح ليبارك الأولاد على أول يوم دراسي لموسم جديد ، حالة من الفوضى بين أفراد عائلة هارون وكأنّه العيد قد أتى .

فعائشة ولأنّ اليوم هو أول موعد لها مع مقاعد الدراسة، كانت قد أجّبرت والدتها أن تلّبسها ملابسها التي لم تكن جديدة ، لأنّها كانت لابنة عمَها التي قد التحقت بمقاعد الدراسة العام الماضي ، ولأنّها ملابس مدينة عنابة ستكون ملابس ثمينة بالنسبة لأولاد القرية ، وبهذا اليوم لم يبق بالبيت إلّا خديجة وهارون الذي كان يغط في نوم عميق .

خرج الأولاد وهم يركضون منتشرين كل إلى وجهته ، اختار كمال ألا يترك عائشة حتى لا يتعرض لها الأولاد المشاكسون ولا تضيع طريق المدرسة ... بينما عائشة لا تزال فرحة بملابس ابنة عمها خاصة وأن أغلب الأطفال لا يرتدون ملابس جديدة فلا تنفك تتباهى بها عند كل طفلة تلتقي بها ، وتتشارك معهم في غبطة اليوم وهم سيلتحقون بمقاعد الدراسة ، فحين وصلا عند باب المدرسة وقف جمال لجانب أخته ، لم يفارقها في انتظار جرس الدخول ، في هذه الأثناء ناداه صوت من بعيد .

ـ كمال تعال إلى هنا .

وقد كان الصوت صادرا من جمع للصبيان . لوّح لهم ثم نظر لأخته .

ـ عائشة أترين مريم ابنة الجيران هناك ، ستكون معك في الصف ... اذهبي وقفي معها .

ـ إلى أين ستذهب ؟ .

ـ أصدقائي هناك.

ـ لكن أريد البقاء معك .

ـ لا تزعجيني أكثر لا يوجد من يلتهمك هنا كلّهم تلاميذ مثلك.

ـ سأذهب معك .

سحب كمال يده من يدها واتجه لأصدقائه ، تاركا عائشة بمفردها لكنّه وما إن وصل إلى أصدقاءه حتى استجمعت شجاعتها واتجهت نحو مريم ونسيت أمر كمال تماما .

رن جرس الدخول ، ليفتح حارس المدرسة الباب وأخذ يحاول جعلهم يدخلون بهدوء ، لكنّه فشل لأنّ المدرسة بالنسبة لأطفال قرية نائية ، تنعدم فيها أدنى وسائل الترفيه

والمتعة جنّة الفردوس لا يمكن أن يكون لها مثيل ، يأخذون في الركض عبر ساحتها الخالية من كل شيء ، عدا أشجار الصنوبر بجوانبها ، تلك الأشجار التي شهدت العديد من أيام من درسوا بها ، أيام اجتماع التلاميذ تحتها لأجل أن يصغوا لإنشاد طفل تم اكتشاف صوته ، أو التزاحم لأجل لعبة يجمعون فيها أكبر عدد من الأقراص التي تستعمل للدراسة ، وحين يطلّ فصل الربيع تزهر أنواع أخرى من الأشجار أمام قاعات الدراسة ، أزهار صفراء تتمتع بها الفتيات في رسم أجمل المنازل على تراب الساحة . ودورات المياه المعدومة النظافة على مدار السنة ، مخلوعة الأبواب فتشرع كل تلميذة في جعل نفسها حاجزا يستر صديقتها لقضاء حاجتها ، وتتم العملية بالدواليك ، بينما الذكور ولأنّهم منذ الأزل لا يملكون قانونا للحياء في قضاء حاجتهم دونما تردد، فيفعلونها وينطلقون بالساحة مرحين .

ويتوسط تلك الساحة سارية للعلم على منصة صغيرة بالكاد تحمل أقدام من وقف لرفع أو إنزال العلم ، وهم يتساءلون عن موعد الغداء ليكون لهم نصيب الدخول إلى المطعم الذي سيحضون فيه على قطعة خبز صغيرة وقطعة جبن أو حبة

بيض ، وصحن صغير من المرق وقد يحدث أحيانا ويحصلون على نوع من الفواكه ، وكلّ هذا من الأمور التي لا يمكن لهم التخلّي عنها لأنّهم يشتركون فيها وهنا تكمن المتعة .

في غمرة الفرح تلك يصفق أكبر المعلمين ليصطّف التلاميذ لتحية العلم وهذا أول ما يتعلمونه ، فالمعلم يقف تلك الوقفة التي تعلّمها أيام الخدمة الوطنية و أيام كان تلميذا بالمدرسة ، فيقلّده التلاميذ ، بل حتى أنّهم يتعمدون أن تصدر الحركات والأصوات دفعة واحدة ، وحتما هذه اللحظات هي أجمل اللحظات التي يستبشر لها المليون والنصف مليون شهيد ، بل حتى أنّهم ينزلون من السماء ليرفرفوا فوق الملائكة ، والعبرات لا تنفك تغادر تلك الأحداق ، فرحا وهياما بهم ، فيتمنوا أن يهتفوا في أذانهم بأن مرحى لهم أن استشهدوا في سبيل الوطن ، وأن الحياة إن منحت لهم مرة أخرى سيضحون بها لأجل هذه اللحظة وهم يرفرفون فوق أولائك الملائكة .

وعندما ينتهون من تحية العلم يتوجهون وفق إشارة معلم كل صف ، عائشة لم تعرف أي اتجاه تتجه ، فحاولت اللحاق بكمال لكنّ معلمه منعها ، فاجتاحتها رغبة في البكاء .

المعلم : صفك هناك يا صغيرتي عند تلك المعلمة .

ـ لكنّي لا أعرف أحدا هنا عدى أخي كمال ؟.

ـ عند المعلمة ستتعرفين على زملاء سيصبحون إخوة لك ولن تنشغل بعدها كمال.

تشجعت عائشة وتوجهت نحو صفها ، وحين دخل زملاؤها ، دخلوا دون نظام أخذين في تصيّد المقاعد الأولى ، وحين انتهى كل ذلك دخلت المعلمة ، وبعد أن جعلوا الصمت يزول تكلّمت معلمتهم .

ـ معلمتكم ليندة ... وسنمضي أيام السنة معا ... نتعلّم الأشياء الجميلة ... حيث ستتعلمون الكتابة والقراءة والرسم والموسيقى .

تلميذ من الصف : وكرة القدم معلمة ؟

ـ طبعا ستلعبونها لكن لن تكون مقررة لكم في الدراسة .

بعدها أخذت تتعرف للأسماء التلاميذ ، وتطلب منهم أن يخبرها كلّ واحد فيهم عن حلمه في المستقبل ، وبعد أن أكملت معهم ساعات اليوم الأول أخبرتهم أن أماكن الجلوس ستتغير من الغد حسب الطول والحالة الصحية لكلّ تلميذ.

عمر بينما عائشة تراقب الأوضاع بصفها يقف منتظرا دوره بطابور البلدية ، لأجل المصادقة على أوراق الخدمة الوطنية ، وقد كان طابورا جعل من عمر الثاني والأخير به ، أما زينب ومباركة كنّ على مقاعدهما بالثانوية زينب بالمرحلة النهائية،أما مباركة فهي بقاعة شعبة التسيير والاقتصاد السنة الثانية ، وهن الآن يقضين وقتهن مع باقي التلاميذ في التعرف على أساتذة الموسم الدراسي الجديد بين من ألفوا رؤيتهم العام الفارط وبين من قد تمّ تعيينه بالثانوية حديثا .

هذا اليوم ليس للدراسة بل لإخبار بعضهم البعض كيف كانت عطلة الصيف ، ووضع لائحة لقائمة الاستخبارات التي بدأت اللحظة في الأحداث والحركة التي تعمّ الثانوية ، ليمضي ذلك اليوم ، وقد خارت قوى التلاميذ من حرارة المساء بعد أن داعبت قطرات المطر شعيرات جلدتهم ، ليعود السكون

لشوارع القرية وقد همدت الحركة مثلما همدت عائشة كلّيا في فراشها ، بعد التعب الذي انهال على جسدها ، لكنّها لم تستطع أن تسيطر على رغبتها في أن تصف فرحتها لزينب ومباركة وعمر ، فبمجرد استيقاظها أخذت تحكي وتعيد دون توقف ما رأت وما حدث لها بالمدرسة .

في حين بدأ صداع الرأس يجتاح رأس هارون لكثرة ما يطلبه المعلمون والأساتذة من التلاميذ ، ويتمنى لو يطلبون كراسا لكلّ تلميذ ، ورغم إلحاح أولاده إلا أنّه يماطل في شراء الأدوات طمعا في أن تعطيهم المدرسة ما يحتاجون ، على اعتبار أنّه لا يملك عملا حكوميا ، دون أن يلقي بالا إلى أن ما تعطيه المدرسة هو الشيء القليل من متطلباتهم ، لتبقى حرب الأدوات قائمة في بيت هارون طول العام الدراسي .

استقرت الأيام على حالها وحان موعد ذهاب عمر إلى تأدية واجبه الوطني ، عمر الذي كان يسمع من رفاقه أن أهلهم يسعون بكلّ جهدهم لحصولهم على الإعفاء لأن أمهاتهم لا يقدرون على مفارقتهم ، مع معرفة آبائهم مقدار العذاب الذي سيتعرضون له هناك ، لأنّهم لم يحصلوا على شهادات

عالية ، بينما هارون لم يحرك ساكنا بل ترك ابنه يحضر أوراقه ويلزمه بأهمية الواجب الوطني ، على اعتبار أنها خطوة تصقل المرء ليكون رجلا صلبا لا يخشى شيئا ، فهو عندما ذهب لتأدية الخدمة الوطنية لم يترك أحدا يقوم بإذلاله ، رغم أنّه لم يعرف المدرسة يوما ، كما أنّه جعلهم يحتارون في أمره فاعترف له قائده أنّه ورغم دراساته العليا إلا أنّه لم يتمكن من مكره وعناده ، لأن هارون لم يطأطئ رأسه لأحد وعلى ابنه أن يكون كذلك .

رجولة ...هكذا اقتنع عمر بها وهو خارج من منزله اقترب من أمه وقبل رأسها ، وطلب منها أن تدعو له دائما ، أما أخواته البنات اللواتي أتين من بعيد لتوديعه ومع من هنّ دائما معه صنعن ملحمة من البكاء على أخيهم ، تجعل الأرض القاحلة وإياهم سهوبا وافرة للحياة ، يعانقّنه ليودعّنه ، وربما أملا في أن تصله ورقة العفو هكذا هدية من الله ، لأنّ علاقة الحب التي جمعتهم ، هم من أعطوا لها الحياة وليس هارون أو خديجة ، فقد أنشئوا علاقة قوية بينهم لا يمكن لأحد أن يحدد فصولها إلا قلوبهم التي قرّرت

الخروج من صراع والديهم حتى يتمكنوا من العيش بطمأنينة .

ترك أمه وأخواته داخل البيت ليجد جمع أصحابه وأخيه أحمد ليودعوه بموكب رجولي ، ويمنحوه القوة وشرف هذا الواجب ، وهو يركب السيارة تناديه عائشة وتطلب منه أن يحضر لها أنواع الحلوى ، يلوح لها بيده فيلمح والده الذي يتوارى خلف جدار البيت لأنّه غريب الأطوار في التعبير عن أحاسيسه ، فكلّما غادر أحد أولاده للزواج أو سفر طويل لا يودعه بل يختفي ، السيارة انطلقت وعمر ينظر لوالده ، ويتذكر ما أوصاه متمنيا أن يكون قويا مثله حتى بالمكر والحيلة المهم أن يكون الأقوى حيث لا مكان للضعفاء .

من داخل البيت كانت البنات يودّعن عمر من ثقوب النافذة والسيارة تضمحل وسط الطريق .

زينب : جميلة أنظري إلى خالد ألا يبدو وسيما بزي زفافه .

جميلة تنظر للجمّع الذي تفرق حتى لا يظهر اهتمامها ، إلى أن ردّت مليكه .

ـ مبارك له ، اختار من أحبته دائما على أن يبكي أطلال جميلة .

جميلة وهي تأخذ مكان بجانب من الغرفة : عن أي أطلال ، أنا لم أرفضه لغروري بنفسي ، بل نظرته الضيقة لوجود المرأة دفعتني بأن أرفض طلبه للزواج .

همّ الجميع لأشغاله بينما مليكة زوجة أحمد بكر هارون اقتربت من جميلة وقالت .

ـ أخبريني بصدق ألم تحبيه ؟

نظرت لها جميلة بشيء من الحياء المتعال .

ـ لو كان هناك حب بيننا لما ذهب وتزوج أخرى بعد شهر من رفضي النهائي له.

ـ لكنك رفضته فلما ينتظر ؟.

مباركة : أمركما عجيب كنتما منذ لحظات تواكبن مناحة عمر ، وبمجرد أن توارى عن الأنظار أخذتما خالد موضوعا .

ذهبت مليكه لشرب القهوة بينما جميلة توجهت إلى غرفة النوم رامية بنفسها على الفراش ، لتأخذها ذاكرتها إلى تلك الأيام وهي تجيء وتروح إلى المدرسة ، والشخص الوحيد الذي ألفته أيامها هو خالد الذي لا ينفك يعدها بالزواج منذ أن وقعت عيناه عليها ، يبني أحلامهما دون أن يكون لها دخل في ذلك ، وتلك الأيام الجميلة غادرت الذاكرة بسرعة حين غزت صورة رفضها له لمجرد أنّه أخبرها بعدم الحاجة للدراسة ولا للعمل ، فالمرأة يحقّ لها أن تعيش لأجل زوجها ، ورغم عودته مرارا كانت ترفضه لأجل نفس السبب .

استيقظت من تلك الذكريات متنهدة تخاطب نفسها :

ـ مهما تغاضيت عن الأمر ، فلن أجد شخصا أتقن الحب كما فعل خالد ، وأنا لم أرفضه لشخصه بل لأحلامه في سيّدة بيته.

بحركة حشرية لعائشة ينقطع سيل أفكار جميلة وهي تلحّ بأن تسرّح لها شعرها لأنّ موعد المدرسة قريب ، تتناول جميلة وسادة وتضعها على رأسها .

ـ اذهبي لأمي لتسرح شعرك.

ـ أنت تعرفين أن أمي تؤلمني وأنا أخاف من تمشيطها لشعري .

جميلة : اذهبي واطلبي من الأخريات ذلك .

انصرفت عائشة بعد أن ذكَرت جميلة بقسوة الوالدة وهي تمشط شعر إحداهن ، لأنّها لا تتخلى عن المشط إلا إذا تيقنت أن خصلات الشعر كلّها باتت في اتجاه واحد وترتيب دقيق ، كأن غراء الأحذية قد سكب عليه ، وكذلك حال أيام الاستحمام ، رغم أن الأوساخ تغادر أجساد أولادها إلا أنّ التعذيب الذي يتعرضون له يجعلهم يتصورون لحظات الاستحمام تلك مع جلاد النار ، الذي لطالما كان البطل الشرير في كل الحكايات ، وذلك لأنّ موعد ممارسة طقوسها الشرسة يكون قد حان ، والذي كان يتجدد دائما كل أسبوع في حياة تلك العائلة ، لكنّ ذلك لا يعني أنّها كانت منبعا للشراسة فقط ، وإنّما كانت فواصل تلك المواعيد مغمورة بالحب والحنان وهي تحاول أن تصغي لأولادها وتشاركهم شيئا من الحكايات المرحة لما يحدث لهم في المدرسة وفي الشارع ، كما يجدونها غاية في اللطف والنعومة في ليال

السمر التي كانت تجمع أفراد العائلة الزائرين ليال لطالما اختلفت أماكن إقامتها .

اجتمعت العائلة اليوم لأجل وداع عمر وهو ذاهب لتأدية محور الرجولة كما أخبره والده ، محور ينبغي أن يكون للوطنية فهو لأجل الوطن وتربية النفس لأجل حبه ، إلا أن هارون لم يمنح أولاده قاعدة تدلّ على هذا الحب لأن قاعدته في الحياة هي أن الرجل ينبغي ألا يطأطئ رأسه لأحد ، حتى وإن اضطر لممارسة أساليب المكر والخداع ، أما الوطن فليس لهم لأنّه لم يمنحهم شيئا ، ولطالما تسألن بناته عمّا يمكن للوطن أن يمنح غير الحرية والكرامة في مسكن أمن بين حنايا ضلوع هادئة ودافئة لوطن مليء بالسلم والوئام ، لأنّه أم فقدت ثدييها جراء الاستغلال التي تعرضت لها ، ورغم ذلك صارعت كل العواصف وأفردت أجنحتها لأولادها وغمرتهم بالسكينة ، ليتمكنوا من العيش على قدر بساطة القلوب ، هذا ما يمكن للأم أن تقدمه ، وعلى الأولاد أن يكتشفوا ثرواتها ويحفظوها لأنّها عورات أمّهم ولا يجوز إباحتها ، لأنّها لهم ولا يمكن لأم أن تمنع أولادها وتعطي لغيرهم .

لازالت الأرض تدور حول نفسها ليأتي موعد الغروب ، وتجتمع العائلة على طبق الكسكسى وفي حرب الملاعق بالصحون وإقبال الأيادي على قطع اللحم وأكواب اللبن والمشروبات ، تتبادل العائلة أطراف الكلام لمختلف المشاغل اليومية ، لتتعالى بعدها عبارات الحمد ض1على النعمة والتحسر على غياب عمر .

يتناول أحمد هاتفه وبعد بضع رنات يسمع صوت عمر : أهلا أحمد .

ـ كيف الحال عندك ؟

ـ كما تعلم أنا الآن عند بيت عقبة، وقد تناولنا الكسكسى في العشاء ونحن ذاهبان الآن إلى المقهى.

ـ تقول لك أمك أنها أعدت لنا الكسكس كذلك ، وأن عليك أن تهتم بنفسك وتسلّم على نفيسة والدة عقبة .

خديجة : هات الهاتف لأكلمه .

أحمد وهو يناولها الهاتف : لاشك أنك تسمعهم الجميع يريد أن يكلمك ، لكن رصيدي غير كاف لذلك ، كلّم والدتك لكن لا

تطل ، فأنت تعلم ماذا يحدث حين تأخذ في الكلام عبر الهاتف .

خديجة بعد أن تناولت الهاتف : عمر ولدي هل أنت بخير ؟ هل أعدوا لك كسكسا جيدا ؟ وهل نفيسة وأولادها بخير ؟.

ـ منذ ساعات فقط غادرت .

ـ لا تبق خارج البيت كثيرا ، عد باكرا ونم لتستيقظ باكرا وتذهب لحال سبيلك ، فلا تطل المكوث عند الناس .

ـ حاضر يا أمي حتى وأنا بعيد عنك ، لا أظن أني سأجد مشكلة في المعسكر بعد أن عسكرت عندك وعند هارون ، ثم أين هو ؟

ـ حاضر معنا .

ـ لما لم يتصل بي ؟

ـ ألا تعرف والدك ، كما أنّه يسألك هل أوصلت الأوراق لعبد القادر ؟.

ـ لمجرد وصولي إلى بيت عقبة أتى أحد أولاده لأخذها .

هارون من بعيد هل قدم لك شيئا .

ـ لا ، لكنّ هل أوصيته أمرا ؟

ابتسمت خديجة وأجابت : طماع ،انتظر منهم الخير وسيأتيك .

أحمد

ـ أمي الرصيد .

ـ حاضر ، أنت كوالدك تعطي الشيء وتخنق الناس به ، عمر تصبح على خير ..

انقطع الخط لتعلق مليكه : كلّنا نشبه أبي لكن ليس هناك من يشبهك ؟

ـ مادام الأمر كذلك فاذهبي وأعدي الشاي .

ترفض مليكة محتجة بأنّها منشغلة بصغيريها التوأم ، فتبادر حيزية لإعداده على الطريقة الصحراوية .

يقبل الجميع اقتراحها لأنّها طالبة جامعية وتتحضر هذا العام لنيل شهادة التخرج في العلوم الإسلامية ، وبذلك سنحت لها الفرصة أن تتعامل وطلبة الصحراء أخذة منهم الكثير من العادات بما في ذلك إعداد الشاي .

دخلت المطبخ وتناولت إبريق الشاي شارعة في التحضير ، لتعود بها ذاكرة الوجّد إلى حقيقة الظروف التي تعلّمت فيها إعداد الشاي ، وهي منخرطة بنادي الإقامة الجامعية وبإحدى نشاطاته أقيمت خيمة صحراوية إحياء للتراث الشعبي ، وقد كان مالك القرية شاب في عمر الثلاثين ، حبّه لخيمته وحرصه عليها دفعاه للاحتدام في جدال مع رؤساء النادي لأجل تركه يقوم بشؤونها أيام تواجدها بالإقامة لكنّهم رفضوا لأنّهم سيكلفون موظفين برعايتها .

الشاب وقد أشار بألم في رأسه ليطلب من حيزيه ـ التي لم يتعرف عليها بعد ـ رغم أنها حضرت أخر الحوار أن تحضر له القهوة من النادي، فاقترحت عليه أن تعدّها له في الغرفة.

الشاب : لا أحتاج ذلك ، لأنك ستتأخرين في إحضارها .

ـ سأحضرها بسرعة .

ـ قلت لك لا ، ثم أنا لا أومن بغير أمي لأنّها الوحيدة التي لا أنتظرها طويلا في إعداد القهوة .

حيزيه تقبّلت الأمر وأخذت العشرين دينارا منه ، وتوجهت إلى النادي وعندما لم تجد القهوة هناك ، توجهت نحو الغرفة

وبسرعة كانت القهوة بين يديه في كأس كبير ، ليفّهم أنّها قد أعدّتها بالغرفة ، وبذلك أبطلت أسطورة غروره بوالدته ، ليجعل احترامه وثقته بين يديها ، ليسلّمها بعد لحظات مهام الخيمة كاملة .

مضت الأيام والخيمة بالإقامة وسليم مالكها يعودها من حين لأخر ليتفقدها .

لم يعد للخيمة مكان وذلك عندما قرر سليم أخذها ، بعد أن ساعدته حيزيه على جمعها ولكي تودعه طلبت منه أنّه حين يأتي لأخذها يتصل بها ، طمأنها بأنّه سيفعل ، ذهبت لغرفتها لتستريح منتظرة اتصاله لكنّه لم يفعل ، وحين ذهبت لدراستها وعادت مساءا لم تجد الخيمة ، لم يفهم أحد إحساسها إلا ذلك السياج الذي كان يحيط بالخيمة وربما بعض البقايا على الأرض ، لأنّهم ترجموا حزنهم بجو غائم لفّ ذلك المكان ، حيزيه لم تتمالك نفسها فاتصلت به معاتبة .

وبمجرد أن رد قال : أهلا لميمة .

لم تعد تشعر بدقات قلبها الذي ظنت أن مكانه قد تغير.

ـ لما ذهبت دون أن تتصل ؟

ـ لم أرد أن أتعبك .

ـ كيف تتعبني وقد جمعتنا الأخوة في الله للأبد

ـ والله أعرف ... وعليك كذلك أن تعرفي أنّه ومهما مرَ الزمن وشغلتني الظروف لن أنسى أختا لي اسمها حيزية .

بذلك غادر سليم حياة حيزيه بعد أن وعدها بأنّه لن ينساها أبدا ، وقد كان عند وعده ، فرغم أنه تزوج إلّا أنّه صارح زوجته بصلته بحيزيه ، وهي الأخرى لم ترفض ذلك ، بعدها بات أبا لياسمين التي قبل أن تولد كان قد طلب من حيزيه أن تمنحه اسما لابنته ، وهذه الأخيرة لم تمنحه أي اسم لأنّ ذلك من حقه وزوجته فقط . غادر بعد أن علَمها إعداد الشاي بالطريقة الصحراوية وهاهي الآن تعدّه لعائلتها كلّما طلب ذلك .

كم هي غريبة ذاكرة الإنسان حين تعيده إلى الوراء لأجل الوقوف على الأطلال ، فلا يجد أي مأزق في أن يعيش ما عاشه طوال أيام الماضي في بضع لحظات وبكل تفاصيله ، ولكم ستكون الحياة رائعة لو تعاملنا في حياتنا بهدوء وصبر

، لأننا نعلم بأنّ الذي يحدث ومهما طال الحال سيكون في عداد الماضي فيصدق منطق الأقدمين " يا سعدك يا فاعل الخير "، فهاهي حيزيه ولأنّها ترفعت عن كلّ الحدود المبتذلة بينها وبين سليم لكونه رجل ، فتعاملت معه متناسية ذلك الفارق بينهما فجمعتهما أجمل الذكريات .

هارون : أين الشاي يا حيزية ؟

حيزيه: بعد لحظات سيكون عندكم يا أبي.

بعد أن أعدته على النار جيدا سكبته بإناء كبير، وأخذت بتبريده بالاستعانة بإناء ثان لأجل الحصول على رغوة الشاي ، لتضعه بعدها في الفناجين وما تبقى تركته في الإبريق وتوجهت به إلى مجلس العائلة بعد إضافة أوراق النعناع واضعة إياه بجانب والدتها التي أخذت حبات الكوكاو معطية لكلّ واحد نصيبه لتبدأ ليلة السمر .

تجمع رجال العائلة على لعبة "السيق" بعد أن اتفقوا بأن من سيغلب سيكون عليه شراء عشاء الليلة القادمة ، بدأ اللعب الذي كان محور السمر إلّا أن تجاذب مختلف الأحاديث بينهم جعل الليلة مليئة بالدفء والشجن العائلي .

الحكايات الخيالية أخذت تأخذ مساحة واسعة جدا لأنّه وبدونها لا يمكن أن تستمر الليلة بطولها رغم الخيال المرعب واشتراك أشخاص حقيقيين في الحكاية إلّا أنّ لم يمنع عائشة وكمال والأولاد الآخرين من الاستماع لها بكلّ شغف.

بادرت مريم أخت خديجة التي قدمت من مدينة تبسة لتشاركهم هذه الليلة بحكايتها على جارتها والجنية ـ تعاليا بنفسها حتى لا يتأكد أحد أنّه محض خيال لم ترد أن تجعل من نفسها بطلة حكاياتها ـ بدأت حكايتها بعد أن عدّلت جلستها مسيطرة على مساحة كبيرة بتربيعة حجّرها وهي تلبس لباسا تقليديا على التفصيل الأوراسي ، ولأنّها ممتلئة الجسم حدّ البدانة ومتفرعة الأطراف تمكن أربعة أولاد من جعل حجّرها مسّند للاتكاء والإصغاء جيدا لحكايتها وحين أخذت تحرّك منديل رأسها مثبتة جديلتيها داخله .

ابتسم الجميع وردد : ـ أه مرحى ـ حتما ستكون الحكاية ممتعة ـ ستكون حتما على الأشباح ـ أظنّ أن البطلة ستكون الخالة مريم .

مريم : أش أش قد سمعتكم جنية جارتي وستأتي لسخطكم فهي قادرة على ذلك .

سكت الجميع وأنصت للخالة مريم لتحكي حكايتها :

تقول جارتي أنّهم عندما كانوا يسكنون بالسهوب الخضراء بالأوراس في بيت قصديري تحوم حوله المساحات الخضراء من كل جانب ، والهواء الندي لا يفارقهم عبر كامل الفصول ، نبّههم الجيران لوجود أناس من العالم الأخر يسكنون المنطقة ، وأنّ عليهم احترامهم والتعامل معهم بوقار لأنّهم لن يتجاوزوا مصالحهم ولن يؤذوا أحدا ، فقط ينبغي على الإنسان الترحيب بهم وتركهم وشأنهم دون خوف أو محاولة لإيذائهم ، لأنّ مجرد الصراخ عند رؤيتهم يجعل الشخص جثة هامدة أو تالف العقل العمر كلّه ، جارتي لم تهتم للأمر واعتبرته مجرد خرافة وكذلك زوجها .

في أحد الأيام استيقظت جارتي من نومها لتعدّ الإفطار لزوجها وحين توجهت لإيقاظه ـ لأنّه ليس من عادته أن يبقى نائما بسدّة الحوش ـ وهو سرير يصنع من أوراق النخيل وأغصانه القوية تثبت ببعضها البعض بواسطة حبال

تصنع من الورق ذاته أو أسلاك حديدية ـ إلى الصباح لمواظبته على صلاة الفجر فبمجرد أداء فريضته يدخل إلى الدار ، وهي توقظه استشعرت الحرارة والارتعاش بجسده ، فأسرعت بسحب الغطاء وهو مستلقي على ظهره لا يملك السيطرة على جسده مع عدم الحركة في جانبه الأيسر ، أخذت في قراءة المعوذات وهي تسأله عن حاله ، لم يكن يجيب ، لكنّها لاحظت حركة عادية لجانبه الأيمن وهو يحرك مسبحته بين الإبهام والسبابة فتعّلم أنّ الذي حدث له كان بعد صلاة الفجر ، قرأت له العديد من السور القرآنية منتظرة شروق الشمس ، وحين كان الأمر هرولت إلى إمام المنطقة وفي طريق السير إلى بيتها شرحت له حالة زوجها وحين وصل وتأمله نظر لها بحدّة .

قال : ألم نحذّركم من أمر العالم الأخر ، فهم من فعلوا هذا .

الجارة : لكن ، لكن... قلّتم إما يموت أو يجنّ ، وهو لا يزال على قيد الحياة ولا أظنّ أنّه قد أصيب بالجنون.

الإمام : لو لم تكن هذه المسبحة بيده لمات في حينها ، لكنّه سيحتاج شهورا ليشفى .

تناول الإمام دلو ماء وأخذ يتلو به آيات قرآنية ثم أوصى الجارة على جعله يشرب الماء إلى أن يأذن الله له بالشفاء .

أتى ابنه لزيارته وقد مكث لأيام رفقة زوجته وابنه الصغير في عمر السنة ، ومع مرور الأيام لاحظت جدّته أنّه حين يكون وحيدا يصدر حركات وكأن شخصا ما يلاعبه وكل ما اقتربت منه تجد عنده كرية صغيرة " البية " في البداية لم تهتم ، لكن تكرار الأمر أزعجها ، أرادت أن تخبر والدته لكنّها تراجعت حين تذكرت وصية أهل القرية وبقيت تراقب الأمر فتنبهت كذلك أنّ الطفل لا يكون في تلك الحال إلا فجرا أو حين العصر ، وحين تقترب منّه يأخذ بصر الطفل يلوح نحو المكان الذي اعتاد زوجها الصلاة فيه ، وفي فجر اليوم الذي قرّر ابنها العودة فيه إلى المدينة بعد أن بدأ والده يتماثل للشفاء ، وبينما هي تعدّ الفطور لمحت نورا يقترب من أشياء مطبخها تمالكت نفسها وأخذت تمدّ بصرها نحوه ، فلمحت امرأة ذات قدّ مليح يكسوه ثوب يميل إلى اصفرار الشمس وبريقها ، وشعر أسود فاقع مسدول حدّ الركب ، وحين اكتملت تفاصيل ذلك الجسد استدار لها بعد أن تناول شيئا من بنّ القهوة منبها بذهابه ، ليبدأ الجسد في

الاضمحلال في المكان الذي كان يصلي فيه زوجها ، وحين فطنت من لحظة الذهول تلك ، تذكرت روعة أحداقها ورعبهما فلم تكن عيونا تنتمي للإنس ولا عيون الحور بالجنة ...

توقفت الخالة مريم عن سرد حكايتها لشرب كوب الماء .

كمال : كيف ذلك هيا أكملي يا خالة .

الخالة : كما تقول جارتي أن أحداقها كانت بقدر كبرها وجمالها في بريقها الأخاذ كانتا تحويان في الدائرة السوداء تلك العلامة التي تملكها أعين القطط ، وكم هي مغرية شفتيها الرفيعتين والشفافتين في عمق الاحمرار وهما تقولان لها : نحن أهل سلم لا نخون العهود لكم حياتكم ولنا حياتنا لا نبغي الأذية .

أشارت الخالة مريم في أن تترك تكملة الحكاية إلى ليلة الغد فصرخ الجميع : أكملي يا خالة ـ أرجوك أكملي ـ أنت لست شهرزاد تحكي للسلطان فتماطله كي لا تموت ـ هيا يا خالة أرجوك .

واصلت الخالة مريم بعد أن عدّلت رأسها على وسادة تخلّت عنّها خديجة وانصرفت لشؤون هارون :

عندما غادر ابنها لم تطق البقاء في منزلها دون أن تذهب وتستفسر على حقيقة هذه الجنية ، ولكي تعرف الحقيقة كاملة توجهت إلى بيت عجوز مسنة يقال أنّها على دراية كاملة بأسرار تلك المنطقة ، حين دخلت عليها منزلها وذلك بعد أن سمحت لها نظرت لها العجوز وابتسمت في وجهها مشيرة لها بالجلوس وهي تجلس على قطعة حصير .

ـ حتما أنك أتيت بعد أن تمكنّت من رؤية جنية بيتك .

الجارة بعد أن عدّلت جلستها ، أرادت أن تتكلم لكنّها خرست فجأة لتتمالك نفسها ولا تصرخ ، لأنّها حين نظرت للعجوز وجدت أن حدقتيها نفس ما رأته في الجنية. أرادت الانسحاب ، لكنّ العجوز تنبهت لها .

العجوز : لا تخافي وإن أردت الصراخ افعلي ذلك لن أؤذيك ، فأنا منذ سنين أصبحت إنسية وحال عيني لا يظهر إلاّ عندما أتنبه لوجود شخص يريد أن يعرف حقيقتنا ، وقد دخلّت عالم الإنسان بعد أن ألفّت الحياة مع العائلة التي كانت هنا منذ

سنين ، ومع مرور الزمن تخلّت عني قواي الخارقة بعد أن أهملت استعمالها ، أما تلك الجنية التي في بيتكم فهي أختي تماره .

تماره منذ سنين تعلّق قلّبها بشاب وسيم بالقرية اسمه صلاح وقد كان هناك شجرة زيتون وافرة الظلال في الأرض التي بني عليها منزلكم ، وقد كانا يلتقيان بين أغصانها التي ولتشابكها شكلت أكواخا داخلية وذلك فجر وعصر كل يوم يلعبان لعبة الخاتم ، أو تمتعه بأجمل الحكايات السحرية ، صلاح وقتها كان لا يزال شابا غرّا رغم وسامته وبراءة طلّته إلّا أنّه كان كثير الشجار مع من هم في سنه . تماره أخبرته مرارا ألّا يخبر أحدا بلقائهما لكنّه كان لا ينفك يخبر أصدقاءه بلقائه وإياها ، وكان أن تبعه في يوم من الأيام أحد معارفه وأخذ يراقبه وهو تحت أغصان الشجرة ينتظرها ، سولت له نفسه أن يقضي على صلاح بضربة على رأسه ويحلّ محلّه ، بعد أن قام بضربه أبعده عن المكان ثم جرده من ملابسه وارتداها ، بعد دقائق وصلت تماره مبتهجة بهية الطلعة كبدر في السماء ، ولذهول ذلك الفتى شهق شهقة كانت أخر حركة يقوم بها وهو إنسان عاقل ، لأن تمارة

تنبهت أنّه ليس صلاح ، وحين فعلت به ذلك حاولت البحث عن جسد صلاح لكنّها لم تجده ، حزنت كثيرا لعلّمها أن جثة صلاح يمكن أن تكون قريبة لكنّ لا يمكن لها أن تتجاوز مساحة تلك الشجرة ، فندمت لأنّها لم تتريث في معاقبة ذلك الفتى حتى يخبرها بمكان صلاح ، حين أشرقت الشمس اختفت تماره وهي تحاول تجاوز الحدود لتمدّ يدها نحو صلاح الذي كان يزحف مادا يده نحوها ، لكنّ الشمس أشرقت وكان على تماره أن تختفي ، مات صلاح وعلم الناس بموته وبجنون ذلك الفتى ، أما تماره لم يعلم بحالها أحد وقد بقيت تسكن تلك الشجرة تنتظر صلاح لأنّها لم تعلم بموته . ولأنّ أهل القرية اعتبروا الشجرة ملعونة قاموا بحرقها وقلع جذورها وكل من استوقد حطبها مات أصغر أولاده ، تعلّق تماره بصلاح لم يتغير فلم تغادر المكان ، أما الفتى الذي دمر عشقها توفي بعد عشر سنوات من صراعه مع الجنون الذي كان يكبّله رغم أنّه يملك عقلا ساكنا داخله .

أما البيت الذي تسكنونه فهناك بجانب منه كان منبت الشجرة الذي لم يتمكنو من قلعه ، ولأنّ تماره النفس لم تطرد أحدا

من المكان فقط من يشهق فيذكرها بذلك الفتى أو كان قاصدا للأذية .

وكلّ الذي عليك معرفته أن تماره جنية عفيفة وطاهرة وعطوفة لم تحمل ذنب دم أحد ، إلّا دم ذلك الفتى ، وليس لها مطلب سوى ألّا تتعدوا على أطلال صلاح وتحرم هي من عطره الفواح الذي لا تشمه إلا بذلك المكان. رغم أنّ إمام المنطقة حاول استدراجها لبيتها هنا بملابس صلاح لكنّها أبت مغادرة المكان.

وبذلك تعلّمت الجارة حسن جوارها مع تماره لسنين طويلة إلى أن شاءت الأقدار وغادرت تلك المنطقة .

ما إن انتهت حكاية الخالة مريم حتى نام معظم الأولاد واضطرت الأمهات لحملهم إلى الفراش ، في تلك الأثناء انتهى الرجال من لعبهم وكان على جمال العمّ أن يفكر في عشاء الليلة القادمة .

غطّ الرجال كذلك بعدها في نوم عميق ، أما النساء رغم أنّهن توجهن للنوم إلا أنّ الانشغالات اليومية لهنّ على

الجارات وحالات الناس لم تنتهي إلا في حدود الساعة الثالثة صباحا ، فغلبهن التعب لينمنّ الساعات المتبقية.

صبيحة اليوم الموالي استيقظ الجميع بين متأهب للسفر وأخر للمدرسة وغيره للعمل ، أعدّت جميلة ومليكه الإفطار ، في حين كانت عائشة تدور بالمنزل وهي تضع وشاحا أسود مسدولا إلى قدميها .

ـ أنا تماره الجنية الجميلة.

يقابلها محي الدين بن خالتها .

ـ أنا صلاح الشاب الوسيم .

بهت الجميع لهذا المشهد ، بينما اعتبرته عائشة إهانة لها ، فدفعته عن طريقها وسحبت الوشاح ورمته بالأرض وداست عليه بقدميها ، ثمّ حملت المحفظة وخرجت متجهة نحو المدرسة دون أن تنتظر كمال ، أولم تصبح القوية وهي في السنة الثانية من التعليم الابتدائي .

الجارة سعدية التي كانت محور حديث نساء عائلة هارون ليلة البارحة ، لا تزال تحضّر قارورات اللبن ، والذي قد أعدّته من حليب البقرة الرائب لهذا الصباح الباكر ليأتي ابن البقال لأخذه لقاء مبلغ متفق عليه من قبل . وبقرتها هي البقرة الوحيدة بالقرية وقد حظيت بها سعدية من ميراث عائلتها بسوق أهراس ، وهي المصدر الوحيد لها لإعالة ابنها الضرير زكرياء الذي يتأهب للتخرج من الجامعة بشهادة المحاماة ، وهي الشهادة التي حلمت بها سعدية بدلا منه ، وهي المرأة الأسطورة التي تحدّت كل الظروف المفجعة ، فبعد أن كانت أسعد الناس بزوج يتقي الله إماما تحبّه كلّ القرية وأولاد يملئون البيت صخبا ... في غمضة ليل أسود أرخى سدوله في أيام العشرية السوداء ، ليل طال ولم ينتهي ، ففي منتصف الليل ومع الدقائق الأولى اجتاح

البيت سرّب من السفاحين الملثمين ، ودون رحمة مزقوا جسد زوجها الذي قام لقيام الليل منذ لحظات ، وليسكتوا هلع الأولاد انهالوا عليهم بالرصاص دون النظر لبراءتهم الملائكية ، خربوا و خربوا البيت شبرا شبرا .

لم ينتبهو لوجود سعدية لأنّها كانت بالباحة تساعد زكرياء على قضاء حاجته ، حين سمعت طلقات النار الأولى احتضنته واختبأت في خم الدجاج ، وهم لم يغفلو عن البحث عنها ، ولأنّ الله كتب لها عمرا جديدا أوحى لأحدهم بأن ينبههم بأنّه يمكن أن تكون قد ذهبت لأهلها .

غادر السفاحون وما كان على سعدية إلّا أن هرولت داخل البيت ، حين دخلت لم تر غير برك الدماء تلك التي باتت أوحال لعدم توافق دمائهم وأجواء الظلم التي تعيش بها القرية ، كابرت على عدم لمسّهم لكنّ أمومتها دفعتها لتسبح في تلك الأوحال وتبحث على نبض لأولادها لعلّها تسعفهم ، إنّها أجساد تنير مساحات الوحل تلك ، وعطور المسك والعنبر تفوح من عروقهم أو ليسوا أبناء الإمام الذي هرولت له سعدية ، وأخذت تقبّل قدميه وتعاتبه لأنّه لم

يأخذها معه ، أغمضت عينيه وعيون أولادها وهي لا تنفك توحد الله وتصلي على الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما زكرياء فقد كان يحاول إيجاد معبر بين جثث إخوته وهو يبكي باحثا عن أمّه ، وهو ابن الثلاث سنوات ملأه الهلع والخوف لأصوات الرصاص وفقدانه لأثر والدته .

في تلك اللحظات اجتمع رجال القرية أمام البيت لهول الفاجعة ، فهم يعلمون أنّه لابدّ وأن يكون وراء صوت الرصاص برك من الدماء ، لم يتمكن أحد من الدخول حتى قدم أخ الإمام ، وحين رأى أن رمز النقاء والإيمان قد صعد إلى الملأ الأعلى من وسط بيته خرج يبشر باستشهاد الإمام وأولاده .

شهداء أبت سعدية إلّا أن تدفنهم ببيتهم فهم شهداء الإمامة ، وليس لهم مكان إلّا في بيتهم الذي كان ملجأ لكلّ الأحاسيس الطيبة ، لأنّ الإمام كان في حالة بحث دائم عن أنبل المشاعر وأرقى الأفعال التي كان يمارسها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي ضاعت وهي تنتقل دون عناية بين البشر وهي تختنق يوما بعد يوم بسبب التأويل الخاطئ ، ومع

مرور الزمن استمرت تصارع كل فكرة تجرأ أهل القرية من خلالها على جعل بيتها زاوية يقصدها الناس فذلك لم يكن يوما من شيم الإمام .

بذلك استمرت حياتها لأجل ابنها الذي ناضلت لأجله ليصل إلى ما هو عليه اليوم ، والحسرة لا تغادرها لأنها لا تملك القدرة على إعادة بصره لقلّة الحال ، لذلك درّسته وهي تسعى لتجد له عملا في مدينة أخواله سوق أهراس، ليجد مكانه في الحياة وربما يجد فرصة نيل نور البصر .

وهي تعدّ قارورات اللبن ، طرق الباب ، توجهت لفتحه وهي تضع في ذهنها أن الطارق ابن البقال لكنّ وبمجرد فتح الباب تبين أن الطارق زكرياء أتى بعد شهر من الغياب في الجامعة ، استقبلته بالأحضان المشتاقة معبرة عن مدى سعادتها بزيارته اليوم .

وصل ابن البقال ليأخذ اللبن ، طلبت سعدية من زكرياء أن يدخل الدار ستنهي عملها ثم تلحق به ، وهو يدخل سلّمت اللبن للولد ثم لحقت بابنها لتجالسه وتحاكيه أشواقها .

زكرياء كان قد تمدد على فراشه بعد أن شغل التلفاز للاستماع إلى الأخبار ، بدا الأمر غريبا لسعدية فمن عادة زكرياء ألا يهتم بشيء عدى والدته ودون أن يتوقف يسرد لها كل تفاصيل الأيام التي قضاها بالجامعة .

تغاضت عن الأمر حين أخذت تبادره الكلام وهي في الغرفة المجاورة تعدّ له الفطور لأنّه قدم باكرا .

ـ بني أتعلم أن رفيقك عمر قد ذهب البارحة للجيش .

دون أن يبدي زكرياء أي ردة فعل واصلت .

ـ وقد حضرت كل العائلة لتوديعه وقد بكى الجميع فراقه حتى أصدقاءه بالحي ، لأنّه طيب عاثر الحظ ، فأنت كما تعلم قد توقف عن الدراسة العام الماضي بسبب المرض الذي لزمه ، وحين شفي رفض العودة لأنّه لم يرد الدراسة مع من هم أصغر منه .

زكرياء مستمر في الصمت .

ـ بني لما هذه الزيارة المفاجئة ، وأين صديقك يحي فمن عادته مرافقتك في كلّ زيارة.

وهي تحمل الفطور نحوه عاود الاستدارة إلى الجدار ، جلست لجانبه تنظر له وهي تستغرب غباءه المفاجئ فهو حين لا يريد رؤيتها لن يحتاج إلى الاستدارة فهو لا يراها أصلا ، لكنّ الذي لا يريد الاعتراف به هو كونه لا يريد أن تتمتع بالنظر لابنها ، وهذا ما جعل الارتياب يبدأ في نخّر جدران قلبها ، لأنّ الحياة عندها لا تتعدى ن تتجاوز محيا ذلك الوجه ، خشية أن يكون هناك سوء ما قد أصابه ، سوء قد حاربه والده الإمام وهي لحدّ اللحظة تصارعه .

رغم ذلك لم تشأ إزعاجه فتوجهت لأعمالها إلى أن أتى موعد الغداء ، والذي انغمست تعدّه كما يشتهيه زكرياء من عصيدة الشوربة واللبن والزبدة والكسرة التي أعدّتها على النار .

سعدية جالسة لجانب ابنها تتأمل نومه لتمدّ يدها وتحاول إيقاظه ، بمداعبة خصلات شعره الملساء إلى أن ينهض و يسحب الغطاء نحو رأسه.

لم تعتد منه سعدية تصرفا كهذا لكنّها كظمت حيرتها وحاولت عدم إيقاظه إلى عصرية المساء .

بينما سعدية جالسة لجانب ابنها تنتظر معرفة همّه ، وهي تحاول صرف فكرة تذكرها بحادثة أن هذا الحال قد اجتاحه مرة وهو يستعد لشهادة التعليم المتوسط ، أرادت التفكير في الأمر بصوت مرتفع ، لكنّ ذلك لم يحدث لأنّ هناك سيارة قد توقفت عند الباب، وما هي إلا لحظات حتى قام أحدهم بطرقه ، توجهت لتعرف من الطارق وهي تصفق كي يعرّف بنفسه .

ـ افتحي الباب سعدية .

توضح لسعدية أن الطارق امرأة ، ففتحت الباب وسكنت في مكانها دون أن تبدي أي ردة فعل ، لأنّ ذهنها قد أخذ يربط حال زكرياء بالمرأة عند الباب ، فيقطع زكرياء صمتها .

ـ دعيها تدخل يا أم زكرياء .

لم تجد سعدية ما تقول وهي تسمع ابنها يناديها بتلك اللهجة ، تتراجع وتسمح لها بالدخول .

اقتربت المرأة من زكرياء لتسلّم عليه وقالت:

ـ ابتعدي لكي أدخل الدار .

وتلحقهم سعدية وهي معلّقة عند زكرياء خائفة مما حصل وما هو واشك على الحصول .

داخل الغرفة نظرت المرأة لسعدية وقالت : أيسمح لي بالجلوس في بيت أخي ؟أم أن ذلك لا يزال محرما ؟.

نظرت لها سعدية نظرة لو أبصرها زكرياء لعلم ما خبأته أمّه سعدية لكل تلك السنين ، وهو لا يعلم أنّه قد دعا إلى بيته روحا لا تحمل داخلها إلّا حب نفسها وأن الذي يأتي بعدها الطوفان ، وأنّ سعدية ما كانت لتدخل أحدا لطالما اعتبرته كلبا من كلاب الشارع ، كما كان يحاول أن يفعل وهو صغير لأن دخول الكلاب للبيت يمنع دخول الملائكة الذين لو أرادوا النزول للأرض فإنّهم لن يغفلوا عن بيت الإمام ليتخذوه موطنا ، لكنّه ولدها الضرير ، وهاهو اليوم يفقد بصيرته ليدخلها الدار وقد رفض منذ لحظات التكلّم ووالدته ليكلّم زكرياء الزائرة .

ـ لتجلسي يا أخت الإمام أو نتكلم خارجا.

ـ بركاهم بيت أخيك لم توصد أبوابه في وجه أحد وهو على قيد الحياة ولن يحدث ذلك بعد مماته .

جلست بركاهم وكذلك سعدية وهي تساعد ابنها على الجلوس .

ـ اجلس بني اجلس أي غصة روح تهديها لوالدك عند تخرجك .

ـ لن أجلس أم زكرياء فقدمي ربما لن يمنحاني فرصة الوقوف بعد ذلك ، لذا أريد أن تزيحي عنّي الهمّ وتبرّئي ضميري وضمير والدي أمام هذه المرأة التي تقول أنها أنجبتني ، وأنت ووالدي حرمتماها من ابنها لأنّها تزوجت رجلا لم ترضوه .

ـ رجل لا نعرف له اسما ولا نسبا ... كاذبة سنوات تسيرين الناس على أكاذيبك .

ـ كاذبة ... أنا أم أنت أم حضرة الإمام الورع التقي الذي حرمني من ابني .

سعدية بكل حدّة

ـ لعنك الله من امرأة فاسقة ، كيف للسان قذر كلسانك أن يذكر شهيد الإمامة ؟.

ـ أضحكتني ، إمام ، ويتبنّى ابنا ليس له ، أظن أنّه لذلك سخطه الله في عقر داره بمجزرة الدماء تلك.

زكرياء بغضب

ـ أغلق فمك ، قبح الله لسانك ، الإمام لا يذكر إلا في مجلس الطهارة والنقاء.

ـ آسفة بني، الظلم الذي لحق بي على يد الإمام.هو ما دفعني لقول ذلك.

ـ تكلّمي لتتكلم أمي زوجة الإمام .

ـ الحقيقة الوحيدة التي أعرفها ويعرفها كل الناس وأعرفها أنا ، أنك ابني قرّة تركها الإمام لي لأتمكن من العيش.

ـ أريد معرفة نسبي وليس مقدار حبّك الذي غمرتني به .

ـ هي ليست أمك ، فقط اعتنت بك بعد أن أصبحت وحيدة .

سعدية ليس لها نقطة ضعف في هذه الحياة إلّا ابنها زكرياء ، لكم ترغب في تلك اللحظة لو أنها تقضم بركاهم بأسنانها وترميها للكلاب ، فلا يملأ قلب زكرياء بأي سمّ أسود يغيره

بل يدمره ، لذلك تحاول التزود بصبر أيوب عليه السلام وهي تردد في نفسها " يا صبر أيوب ، يا صبر أيوب " .

ـ بركاهم أنت والدته ...إذا أين والده؟ .

ـ كلّنا نعرف أنّه قد توفي قبل أن يولد ابنه ، ولا ندري من قتله ، ربما أنت تعلمين .

سعديةـ محاولة السيطرة على غضبها ـ

ـ مات ... من العشيق المجهول الذي هو الآن يتمتع بزوجاته وأولاده ، تاركا إياك وراءه كخرقة بالية اشمأز منها بعد أن تمكن منها ، منذ الإشارة الأولى وقضى على براءة أخت الإمام .

بركاهم وقد بدأت تتلملم في ملابسها بعد أن لاحظت أن سعدية لم يعد يهمّها أمر إخفاء الحقيقة .

ـ تزوجك أم لا .

ـ لا تصغي لها ، لأنّهم رفضوه أخذوك مني غصبا ، فاضطررت للقول بأنّه مات .

سعدية بعد أن امتلأت غضبا

ـ سحقا لك .

ثم نظرت لزكرياء وأطرقت القول .

ـ قبل أن أوضح لك أريدك أن تعرف أنّ عماك محي الدين ومحمد يعلمون بالحقيقة فعندما لن تصدقني فيما أقول ، سافر لهم واسألهم لأنّهم طبعا لن يأتيا إلى منزل والدك وقد حرموه عليهم ، لأنّه غطى على فضيحة أخته ولم يطبّق عليها حكم الشرع .

حاولت بركاهم أن تقاطعها لكنّها لم تترك لها مجالا .

ـ في ليلة من الليالي بعد أن أتمّ والدك إمامة صلاة العشاء ، عاد لبيته مستبشرا بخاطب تقدّم لأخته تلك التي كانت لا تعني له أمرا إلا أميرة لا يجيد أن يمنحها أمرا إلا الحب والرعاية ، منذ أن أمسكت إصبعه الصغير عندما توفيت والدتهم .

حين سأل عنها ، أخبرته أنّها صعدت السطح تتأمل النجوم كعادتها ، ابتسم وخبّرني أنّ أخته رقيقة لو أنّها تمكنّت من الدراسة لأصبحت شاعرة ذات شأن ، ثمّ توجه نحوها بعد دقائق ،عاد مذهولا مدحورا وكأنّما يقول دثروني ، استغربت

الأمر لكن ومع دخول أخته عقبه وهي تلفّ نفسها بغطاء متوجهة في خجل مبالغ فيه إلى غرفتها ، خارت قواي وأنا أحاول أن أقدم للإمام كوب ماء لعلّه يهدأ .

لكنّه لم يتوقف على ترديد : ويح حالي ، إلى أين أمضي بهذا العار ،أستغفر الله لا حول ولا قوة إلا بالله .

لم أشعر بنفسي إلّا وإنا بغرفة أخته أريد معرفة ما حدث.

بقيت واقفة لوقت طويل وأنا أنتظر كلاما منها رغم أن الحقائق واضحة لكني لم أكن أريد الاعتراف.

قالت : لقد وجدني مع ....مع.... لكنّه هرب والحمد لله .

غريبة كانت لقد تمكنت من أن تتجرد تماما من ملائكية أخت الإمام ، بحثت في ملامحها لعلّي أجد جانبا منها خال من القذارة لكنّي لم أكن أرى إلا النجاسة التي صرّحت بنفسها في بقعة ما كان ينبغي أن يكون لها وجود فيها ... لأنّ الذي حدث لم يكن خطيئة الحب فيصلحها أخوها ، بل شهوات حيوان أعدم براءة ابنة الإمام بمحو إرادتها فسكنتها روح القذارة.

وهي القذارة التي منحتها الشجاعة لتتكلّم بكل هذا البرود اليوم .

سألتها :

ـ أي برود تملكين ؟ مع من كنت ؟.

ـ لن أجيب .

ـ أخرجي وانظري لحال أخيك .

ـ أخرج عني ، لا دخل لك .

لحظتها دخل الإمام

ـ سعدية لا أريد خروجها من هذه الغرفة مهما كانت الأسباب ، وإن سألك أحد عنها قولي سافرت ، إلى أن تنجب فضيحتها ونرى.

أغلق عليها بعد أن خرجت ، ولم يعدّ إلى البيت إلّا بعد خمسة أيام وحين ركن إلى نفسه ، أخبرني أنه وجدها مع أحد ما على سطح البيت ، وحين لمحه هرب همّ لقتلها لحظتها لكنّها أخبرته أنها تحمل طفلا داخلها ... ما جعله يتراجع وما كان عليه إلّا أن يقوم بحجزها داخل الغرفة ، وحرّص علي أن

أدعي الحمل لأنّها أخته التي كانت يوما ملاك حياته خبرته برجل لا يرى أمرا غير الطهارة فيه والعفة ، وهو الأخ القريب إليه لذلك خوفه من أن يصدق كلامها فيخسر رمزا طيبا أخر في حياته توارى وراء خطيئة أخته ، وقد مات وذلك الشك ينخر قلبه في احتمال قذارة أخيه وصديقهولم يعلم أبدا ببراءته من ذلك الاتهام الباطل .

وحين أخبر إخوته قرروا قتلها دون تردد ، ولرحمة قلبه دافع عنها ووعدهم أنّه وبمجرد إنجابها الطفل سيرى في أمرها ، خاصة وأنّها في حرمة بيته ، فخرجوا من بيت أخيهم الطاهر لأنّه احتضن فاجرة لوثتّه وأقسموا على عدم دخوله إن تركها تنجب الطفل .

حين قرب موعد الولادة تمكنت بركاهم من الفرار ، لكن الغريب أنّها حين أنجبت طفلها لم تتردد لحظة في تركه عند باب البيت والانصراف إلى هواها .

صمتت سعدية للحظة ثم قالت .

هذه حكايتك يا ولدي ، الإمام رحمه الله رأف بك وحفاظا على شرف العائلة تعدّى قواعد الشريعة وضمك إلى العائلة .

انتفضت بركاهم محتجة

ـ كاذبة ... أجبرتموني على التخلي عنه .

سعدية الأم التي تتقطع أوصالها في هذه اللحظة لأنّ ابنها الوحيد الذي تركته لها العشرية السوداء ، يضعها في موقف أبعدته عنه في سنواته التي مرّت ، تتحكم في أعصابها لأجل أن لا تجرح مشاعره .

نظرت لبركاهم

ـ أنت في فرنسا أليس كذلك ؟ هل أنت متزوجة ؟.

ـ أجل .

ـ ممن ؟.

ـ ما شأنك ؟.

ـ رجل يصغرك سنا ، تزوجك لأجل الميراث الذي ورثته من والدتك التي تركتك صغيرة خوفا من أن يظلمك إخوتك ، وقد دافع عنه الإمام إلى أن كبرت وكذلك ما تمكنّت من أخذه من الزيجات الأولى .

همّت بركاهم للخروج وهي تهدد بأن تخبر أهل القرية عمّا فعله الإمام ، وكأنّها لا تعلم أنّها في بقعة الدواليك التي تجيد احتواء كل فضائحها وتتقبلها ، ودون ذكر تتعايش مع الفضائح وتنسى رغم ذكرها الدائم في مختلف المجالسات.

لكن زكرياء لا يعرف ذلك بمقدار معرفة سعدية .

أوقفها قائلا : انتظري ... قلت لك منذ البداية ألا تذكري اسم الإمام بهذه القذارة ، ثم لا داعي لإزعاجه في قبره سأذهب معك.

صعقت سعدية لما تسمع .

ـ لا بد أنك تمزح ؟.

ـ أنا ابن حرام بأم زكرياء ... نقطة قذرة بهذا البيت الطاهر سأذهب إلى حيث موطني حتى لا يتجرأ الناس ويجعلوه علكة في أفواههم .

ـ لن يصدقها أحد ... فأنت ابن الرجل الذي استشهد لأجل الإمامة وصدقني لن يكون لك تعريف غير ذلك.

زكرياء باسترسال

ـ لن أترك ... والدي الإمام علكة في فاه أحد ، يكفيه ألما أنّ له أختا شوهت دفتر حياته ، وأنجبت له لقيطا ضريرا .

دخل غرفته وأخذ في جمع أوراقه ، في هذه اللحظات انقضت سعدية على بركاهم لبؤة تدافع على صغيرها .

بركاهم وفي دقائق الاعتراف تلك لم تبدي أي عاطفة للأمومة أو أي ردة فعل على تجريح زكرياء لها ، ولحدّ تلك اللحظة سعت سعدية لمعرفة سرّ تصرفاتها الهوجاء تلك ، لكنّها لم تجد فلا يمكن أن يكون انتقاما فهي لم تلق في كلّ حياتها إلّا الحب ، حتى أنّها عندما أخطأت لم يمدّ الإمام يده عليها ولم يترك أحدا يفعل ، حتى وإن عادت لابنها ، لما تركته أصلا أول الأمر ، حتى أنّها الآن لا تبدي أي عاطفة حتى ولو كانت كاذبة .

بركاهم مستفزة : ألم أقل لك أنّه ما من أحد يقدر علي .

ـ أنا أعمى ولست أصما .

في صمت ساد البيت خرج زكرياء مع بركاهم تاركا سعدية وراءه بمفردها ، متربعة في حوش الدار بعد أن ركن الذهول وسط ركبتيها ، دون أن تبدي أي ردة فعل رغم أنّها سمعت

صوت محرك السيارة ينطلق لتستنشق غبار العجلات ، كانت تنتظر دخول زكرياء لأنّه صاحب اللحظة الأخيرة إلّا أنّه لم يفعل ، بل دخلت أمال ابنة أختها تعودها كما اعتادت أن تفعل واقتربت لتجلس لجانبها .

ـ خالتي لقد اتصل زكرياء وأخبرني أن أمكث معك .

ـ أكبر لهذا الحد دون أن أدرك فيقرر مصيري ويعين من يؤنس ويطفأ النار التي تركني داخلها ... لقد غادر ابني مع العاهرة التي كسرت قلب الإمام ، ومرغت سمعة إخوته وكسرت قلبي اليوم وغدا والله ستكسر قلب صغيري .

ـ ماذا تقصدين ؟... لقد أخبرني أنه ذهب مع عمته .

سعدية ومع أيامها التي أخفت عنها أخبار ابنها، ومكوث أمال الدائم عندها باعت بقرتها وأخبرت أمال أنّه لا يهم أبدا بقاؤها.

تمضي سائر أيامها ، تتنقل من بيت إلى بيت وقد كانت كل البيوت تفتح لها ، لأنهّا كبيرة القرية محبة وشفقة لترك ابنها لها .

أهازيج الفرح تملأ القرية والكلّ فرح مشارك لهذه المناسبة التي ستجمع فهد وجهيدة برباط الزوجية إلى الأبد ، وسعدية أول المدعوين ، فأمال قبل أن تجهز نفسها هي الآن تخضب خصلات شعر خالتها بالحناء ، خصلات تتمنى كل فتاة حظيت بفرصة لمسهم أن تملك ولو ثلثا صغيرا جدا من طولهم ، وملمسهم الناعم الخال من أي عيوب ، بينما سعدية تتفقد حزمتها إن كان ينقصها إثمد أو طيب أو المسواك .

في حين كانت بنات خديجة يحاولن اختيار ملابس مرتبة لأجل العرس ، وأمهن بركن من البيت منهمكة في تنظيف أسنانها بالمسواك حارصة على أن يمنح لثتها اللون الأحمر ، وهي من حين لأخر تؤكد على زينب أن تسرح لها شعرها .

العرس للجميع والعروس صديقة لزينب وهي الآن منهمكة مع رفيقاتها اللواتي حضرن لبيتها ، لتكون أجمل الفتيات لأنّه عليها أن تكون الليلة في مثل تمام البدر وروعته ، رغم أنّها تستمر في كسر قلب أحدهم إلى اليوم ، وهو عمر الذي كان قد أخذ منها وعدا في أن تنتظره إلى حين يكمل واجبه الوطني ليتقدم إلى خطبتها إلّا أنّها خالفت وعدها .

عائلة عمر تحضر الزفاف لأنّها لم تكن على علم بأوجاع ابنها الذي لم يبق له إلا أيام ويعود ، لكن طبعا فاليوم يمضي بالدقائق والساعات وما من أحد فكّر في أن يضيع لحظة منه.

اجتمع الناس على الحساء والبكبوكة والمشروبات الغازية ، منشغلين بعدها بالتحضير لخروج العروس من بيت والدها إلى بيت زوجها بالقرية المجاورة .

دقات قلب العروس أصبح من الممكن الإنصات لها بمجرد وضع الأنامل على صدرها ، وكذلك ملامح المشاعر المتضاربة بدت واضحة جليا على تقاسيم وجهها الذي تحاول السيطرة على كمال بدره وبهاءه .

خرجت نورة الأخت الصغرى لها إلى الشارع ، تطلب والدها ليسرع ويطلب من الأولاد إحضار صناديق المشروبات التي وضعها بثلاجة الحانوت ، ثم دخلت إلى البيت ،بينما أرسل والدها في طلب المشروبات التي حضرت بعد دقائق لتملأ الحركة الدار ،وذلك ليحظى الجميع بعلبة الحلوى وكأس الحليب والمشروبات الغازية .

في غمرة الركض وتباشير الفرح التي يثيرها الأطفال ، فقدت جهيدة السيطرة على دقات قلبها تماما حين أخذت الفتيات تسرعّن في إضافة شيء من الزينة لها دون أن تنسى إحداهن أن تهتم بجمالها ،لأنّ الأعراس في القرية موعد لأنّ تحظى أي فتاة بعريس لها سواء يلمحها هو أو أحد أفراد العائلة ، دون أن تنسى إحداهن قرص العروس أو ارتداء ملابسها وأحذيتها .

خرجت العروس من بيت والدها وهي تمسك بذراعه إلى أن وصلت إلى السيارة ، ركبت السيارة وهو يدعو لها بالخير والسعادة ، في حين أقبلت الفتيات نحو السيارات الفارغة حتى لا يفوتن العرس ببيت العريس .

موكب العروس يمضي في طريقه كما جرت العادة ليلّف كامل القرية ثم اتجه إلى قرية العريس ، وقد حرصت بنات خديجة على تواجدهن بنفس السيارة معا

عائشة : هل رأيت سائق سيارة العروس ؟

زينب : وما شأني به ؟ قد يكون أحد إخوة العريس .

عائشة : كان يلبس قبعة شمسية ولم أتأكد من هويته .

نظرت زينب لعائشة مليا ثم أخذت في القول

ـ أنتن لازلتن تبحثن عن عريس، بينما عائشة وجدته قبلكن.

عائشة : لا تقولي هراء كهذا ، فقط ضننت أنه عمر .

بينما كانت العروس بالسيارة ، وكذلك أخت العريس يستمعن لأجمل الأغاني بالسيارة.

والد العريس : يا بني من أنت فأنا لم أعرفك ؟.

ـ تردد الشاب في الكلام بينما واصل الوالد في السؤال .

ـ لأن السيارة لأخي وقد أخبرني أنّه سيترك ابنه يقود.

أشاح الشاب القبعة عن رأسه وقال : أنا عمر ابن هارون جار عائلة العروس .

ـ نعم العائلة ، لكن أين ابن أخي ؟

ـ الحقيقة يا عمّ أنه قد تعب أحد أصدقائنا فذهب رفقته إلى المستشفى بالمدينة ، ولكي لا يتأخر موكب العروس أخذت منه المفاتيح ، أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك.

ـ سوف نرى ـ ثم نظر لنورة وسألها ـ ابنتي هل تعرفونه ؟

ـ أجل إنه كفرد من العائلة ، ولطالما تقاسم معنا المأكل والمشرب .

ـ حسنا إذا .

نورة بدأت تلاحظ أن أختها ترتعش لشعورها بالضيق ، نظرت لها فلمحت شيئا من الدموع على وجنتيها .

ـ إهدائي أختي ، ألم تخبرينا أنك لن تبك .

أخت العريس

ـ حتما أنها تبك الفراق، خاصة حين قبلها والدها على رأسها.

في هذه اللحظات غير عمر الأغنية على الشريط ، مرسلا من خلال عبارات الأغنية رسالته لجهيدة ،يخبرها أنّه غير حاقد عليها رغم خيانتها ، لأنّ قانون القرية يعدم الحب ولا يمكن لامرأة أن تصنعه ، ودليله على ذلك أنّه يتمنى لها السعادة وأنّه عند وعده بأنّه سوف يفرح ويطلق الرصاص في عرسها حتى وإن لم تكن من نصيبه .

بدأت الغصة تخنق بكاء جهيدة ، وحين أحس الوالد بذلك طلب من عمر أن يغير الأغنية ، وقد كان يمكنه أن يعي أن هناك أمر مريب لكنّه لم يمنح نفسه فرصة لذلك ، لأنهّم أناس محافظون ويستحيل أن يتجرأ أحد على القيام بأمر يؤذي به أحدا ، خاصة وأنّ من سيتعرض للمهانة هو جهيدة وأهلها ، أما عمر حتى وإن سولت له نفسه وأن يقوم بأمر ما فسيكون ذلك بطولة ، فقد دافع الرجل عن حب هو له والوحيدة التي امتلكت الاعتراف بما يجمع عمر وجهيدة هي نورة فاقتربت من أذن جهيدة وهمست : هو لم يؤذك أنت من غدرت به وقد منحت فرصا لتنتظريه لكنّك اخترت فهد ابن العائلة الغنية ، وتركت حبا لم يشأ أن يترك فرصة أن يفرح

معك في فرح ليس له ، امسحي دموعك أخت العريس معنا وإن ارتابت في الأمر ستحول حياتك إلى جحيم .

غير عمر الأغنية ، دقائق وصل الموكب إلى بيت العريس ، مضت ساعات الأهازيج وتناول الناس عشاءهم ، ليغادر من ينبغي له المغادرة ، في تلك الأثناء العريس وأصدقاؤه أقاموا عرسا أخر فيما بينهم بمستودع البيت ، فتدافعت الفتيات نحو الباب الفاصل بين البيت والمستودع ، وأخذن يستمتعن بالنظر إلى رقص الشباب ، دون أن تنتبه أختي عمر لوجوده بينما جهيدة كانت تنظر إليه من نافذة غرفتها ، وكلّه فرح وبهجة لأنّ العريسين قريبين إلى قلبه ، حبيبة كان ينبغي أن تكون زوجته ، وصديق لطالما تقاسما معا أهمّ اللحظات في حياتهما ، لكنّه لم يفكر يوما في أن يكمل هو مشوار حبه مع جهيدة ،التي ظنّ أنّه حين لن يخبر أصحابه عنّها لن تضيع ، فما كان له إلاّ أن يشرب من كأس ثمالة العشاق كأس عصر من غصة قلبه التي كان يواريها وراء فرحه .

همس أحد الأصدقاء في أذن فهد ، ليتسلل فهد متجها نحو عروسه ، حين رأته جهيدة جلست بسريرها تنتظره ، أما أصدقاءه حين انتبهوا لاختفائه أعلنوا بمرحهم وكلماتهم

المعاتبة على تمردّه ، لينصرفوا بعدها للنوم كحال الجميع ماعدا والدتي العروسين وبعض الفتيات الفضوليات .

دخل فهد مخدعه ليحظى بامرأته هذه الليلة ، حيث لا يمكن لأمر أن يمنعه عنها أبدا فهي حليلته اليوم والعمر كلّه ، وهاهو الآن يرتب نفسه ليخطو أصعب الخطوات نحو جهيدة ، وبعد انتهاء تلك الخطوات أصبح بجانبها ، هو لا يعرف تفاصيل جمال ذلك الجسد الذي يغمره ثوب الزفاف الأبيض ، وكل الذي يعرفه أن اسمه جهيدة فتاة رأى تقاسيم وجهها على حجاب ستر أي تفصيل أخر .

يمدّ يده ليرفع الستار الأبيض عنها وهو يحمد الله على النعمة ويكبره على ما أعطاه لها من تفاصيل تسر الذي حظي بها، طبع قبلة على جبينها وهو يستنشق عطر خوفها متأملا بكل امتنان خجلها ، وهما في مخدع سيجمعهما إلى الأبد.

مدّ فهد يده إلى زر النور وأطفأه ، لتكون لحظتهما معا ولا يمكن لأحد لا من الإنس ولا من الجن ولا حتى خيالاتهما أن يشاركوهم فيها .

طال انتظار ذلك الجمع من الفضوليات لأنّ فهد لم يشأ أن يخرج ويترك حليلته إلى الصباح الباكر ، وحين خرج لمحته والدة جهيدة ، فأيقظت من نام وتوجهن نحو جهيدة أطمأنن على حالها ليطلقن بعدها زغاريد البشرى بطهارة وعفة جهيدة ، وغبطة والدة فهد بابنها .

حين سمع عمر وهو بالمستودع زغاريد البشرى أطلق العنان لطلقات البارود ، ثم نظر للسماء وحمد الله على ما أنعم به على جهيدة ، لحظتها وقع عند قدميه شيء حين لمحه وجد أنّه قلادة التي أهداها لجهيدة ، وحين تأملها بين يديه وجد أنّها حذفت اسمها منها شدّ قبضة يده ثم نظر للنافذة فلم يجدها تنظر إليه ، ابتسم ليشدّ بعدها الوجهة إلى بيته .

ودعت خديجة وبناتها جهيدة ، وانصرفن كذلك ووجهتن البيت ، وهن داخلات لبيتهن كانت عائشة لا تزال تؤكد لوالدتها أنّها رأت عمر لكنّها لم تكن تصغي لها ، تفقدت هارون فوجدته يهم للخروج مع كمال إلى السوق ، بينما توجهت البنات كل واحدة إلى أمر ، وتوجهت هي إلى الحمام بحوش الدار فتنبهت أن باب غرفة عمر مفتوح ، استغربت

الأمر فهارون ليس من عادته الدخول لها إن لم يكن عمر موجود بها ، فنادت زينب بأن تغلق باب الغرفة .

توجهت زينب نحو الغرفة لتغلق بابها لاح نظرها إلى الداخل .

- يا إلهي إنّه عمر .

هرولت الوالدة وكذا بناتها ينظرن من بداخل الغرفة ، إنّه عمر كان نائما على سريره .

- ألم أقل أني رأيته - عائشة بفرح - .

يوم بأكمله وهو بينهم فلم تقدر لا الأم ولا الأختين ولا حتى هارون وكمال من أن ينتبهوا لنور عاد بعد طول غياب ، فقط عائشة بسمة ودلال بيت هارون ، الطفلة التي لا يوجد لها تعريف إلا في الحكايات ، هادئة حملت بكلّ شرف تاج الأميرات لدى هارون ، لم تكن تكلّف أحدا عناء الاعتناء بها ، فبينما من هم في سنها يلحون بالصراخ وإثارة المتاعب لأجل الحصول على ما يريدون ، كانت هي تأخذ حاجتها وتنسحب بهدوء إلى عالمها ، ولا يعني ذلك أنّها كانت تحصل على أتفه الأشياء ، فهي لم تلعب بدمية إلّا وقد

خرجت لتوها من علب الهدايا ، ولم تلبس ثوبا إلّا وقد اهتم عمر بأنّ يكون من القطع النادرة ، ولم يوضع في كفّ يدها أخر حبة حلوى لم يرغب فيها الأطفال ، بل تلك التي يعنى في اختيارها على ذوق الكراميل والفانيليا

عمّ الفرح بيت هارون لعودة عمر ، وأخذت الأحضان تستقبله بكل شوق وحنين ، إلّا عائشة فهي لا تسعه لأنّها الفراشة التي لا يعرفون كيف حتى تلتصق بالصدر لتطرق على مواطنها داخل القلوب ، تقبله مقاومة منبت الشعر بلحيته .

ـ ماذا حدث لوجهك لقد أصبح شائكا كأبي ؟.

ـ هي الرجولة الحقيقية يا عائشة ولولاها لما أحضرت علب الحلوى .

ـ وأين هي ؟

ـ هي داخل الحقيبة .

من بعيد يسمع صوت سعدية وهي داخلة للبيت دون استئذان.

ـ عمر ..عمر ... أين رائحة الغوالي ؟ـ وهي لا تنفك تطلق زغاريد الفرح ـ عتباك يا ولدي كيف لا تخبر بموعد عودتك مسبقا لتشارك القرية فرحة اللقاء .

زينب في خلدها وهي تتأمل استقبال سعدية لقبلة عمر بكل حب وأريحية .

ـ آه يا خالة سعدية أي عتاب هو ذاك الذي يصدر من لسانك فذاك عمر كوكب العشق الذي لم نكن نشعر به ، ضيع حبه ليس لتخاذله بل لأنّه أراد الصمت عليه ولا يشارك به أحد ، ففقده ولأنّه كذلك ودعه بكل صبر وفي موكب رائع لم تكتشفه إلّا عائشة لكنّها صغيرة ولا تدري معناه ، وبذلك زار القرية دربا دربا ولا ندري بكم فردا قد التقى ، إنّه الحب يا خالة من جعلنا أخر من يحتضنه .

عمر وهو يعلم نيران الخيبة لما فعله زكرياء بها ، أنزل عائشة وتوجه لها يطبع قبلة على جبينها ـ لأنّه من القلوب إلى القلوب مرسال لا تحتاج أم لدعوة لتفرح بابنها لأنّها تشمّ عطره أينما كانت.

ـ بوركت بني ...وحفظ الله أخيكم المتذاكي ـ ثم وجهت الكلام للبنات ـ الكثرة والربا كلحم العيد ألا ترون أثر السفر على أخيكم .

فأخذت الوالدة في إصدار الأوامر .

ـ جميلة اذهبي وحضّري الحمام لأخيك بينما سأدخل وخالتك لإعداد القهوة .

ـ أطلبي ذلك من غيري عندي عمل وسأنجزه .

عمر

ـ اذهبي وأعدّي الحمام لأزف لك البشرى التي لأجلها ستتحملين نفقات عشاء العودة.

ابتسمت جميلة في وجهه ثم توجهت للحمام لتعدله ، أما أخواتها فقد تعلقّن مع علامات الاستفهام ، بسب ما قاله عمر ، وما الدّاعي الذي جعل جميلة تدفع كل تلك النفقات ، وقد أقسمت ألا تشارك في مصاريف الدار مهما حدث ، للطبع الغالب على والدها من البخل في عقر الدار والإسراف حدّ البذخ خارجه ، وما سرّ خطوات الاستحياء التي خطتها لأجل خدمة عمر .

دخلت سعدية وخديجة المطبخ بينما انصرفت البنات لأشغالهن ، دون أن ينتبهوا أن عائشة قد تسللت لغرفة عمر وأخذت في نبش في حقيبته،حين دخل عمر وجدها متربعة أمام حقيبة سفره تنظر ما وعدها به ، ما كان إلّا أن جلس بجانب من سريره وأخرج لها كيس الحلوى خاصتها في تلك الأثناء سقطت القلادة ، وحين لمحتها أصرت على أخذها لكنّه أبى إعطاءها لها ، ولم تتوقف على عنادها إلا حين صرخ في وجهها بأن تخرج .

عائشة رغم دلالها لم تكن تأخذ من البكاء وسيلة للدفاع على ما تريد ، وكأنّما كانت تعي أن لكل شخص ممتلكاته ،وهي تخرج نست في لحظة أنّه صرخ في وجهها بل طارت راكضة بكيسها وهي تنادي كمال لتتقاسم وإياه الحلوى .

أما عمر فقد أعاد القلادة للحقيبة دون أي ردة فعل وانصرف ليحضّر ملابسه.

كانت سعدية قد تناولت قطعة الجلد الصوفي وجعلت منها فراشا تربعت عليه ، وبادرتها خديجة في الكلام .

ـ أرأيت أمّ الساعد البارحة وهي تتباه بتزويج بناتها الواحدة تلوى الأخرى ، خاصة حين بدأت أخوات العريس في عرّض ما أحضرنه للعروس من بيت زوجها ، بينما هي انشغلت تدعو عند مسمعي لأجل عازبات القرية كلّهن .

ـ معها حق زوجت كل بناتها .

ـ عن أي زواج تتكلمين ، لولا جمالهن الأجنبي لما تزوجن .

زينب تدخل صلب الموضوع ـ وهي تحتج بأخذ إناء من المطبخ ـ : زواج المقايضة رجل بامرأة هكذا الحال .

ـ أغلق فمك ، منذ متى تعلّمت الدخول في كلام الكبار .

ـ دعيها ، بنات اليوم أصبح حالهم محيرا .

وبمجرد أن خرجت زينب من المطبخ ناداها عمر وحين ذهبت نحوه طلب منها الجلوس وحين جلست على السرير نظر لها مليا ثم أغلق باب خزانته.

ـ زينب أنت الوحيدة التي تعرفين ما كان بيني وبين جهيدة.

ـ أجل .

ـ ما قصدك بالكلام الذي قلتيه منذ لحظات .

ـ قصدت أنها تزوجت .

ـ كفاك عبثا . هل جهيدة ضحية للمقايضة ؟

ـ ليست ضحية كلام بل بإرادتها .

ـ انصرفي .

انصرفت زينب وعند باب الغرفة نظرت لأخيها عمر .

ـ اغربي عن وجهي .

ـ عمر جهيدة ذهبت بمحو إرادتها ، ذهبت لأنّها ستعيش الرفاهية التي لن تجدها في بيت هارون أولا تعلم أنّ...

قاطعها عمر : أغلق فمك وانصرفي .

انصرفت وهي تعترف له في نفسها أنّها تعتبره مجرد أحمق مجنون لا يجيد غير الكلام ،أمّا فهد يملك الكلام والمال والجمال والرجولة .

أما خديجة لازالت تخبر سعدية عن مقدار غيظها .

ـ رغم أن الذي قالته عند مسمعي لإزعاجي طبعا ، إلّا أنّ كلامها بتّ أفكر فيه منذ مدة ، وبناتي يكبرن فما حاجتي

لدراستهن إن لم يحضين بزوج يسترهن ، وما الذي استفدت غير تدخلهنّ فيما لا يعنيهنّ رافضين الإصغاء على اعتبار أنهنّ واعيات لحياتهنّ .

ـ كابني طبعا ، ألم أعلمه ليتركني لأجل ف...

ـ ماذا تقصدين ، ألم يذهب فقط لأجل العلاج وسيعود لك .

ـ لا يهمّ هذا ...المهم أنّه تركني ....

ـ فعلا جزاها الله خيرا لأنّها أرادت علاجه ... لقد أكملت إعداد القهوة .

ـ سأشربها وأذهب .

ـ إلى أين ، هل أزعجك كلامي ، آسفة.

ـ الكلمة كالرصاص إذا خرجت لا تعود ، بركاهم التي تدعين لها جلبت العار للإمام ، ومن يدري لربما قتل لأجل ذلك .

جميلة ـ من الحمام ـ : عمر الحمام أصبح جاهزا ـ أمي أين منشفة عمر ؟.

ـ بالدرج السفلي لخزانته ـ ثم وجهت كلامها لسعدية ـ أتعرفين هم البنات إلى الممات لا يقمن بشيء من دوني.

ـ خديجة نعرف بعضنا ونعرف حال المعسكر الذي تعيشه بناتك معك ، ثم احمدي الله على النعمة ، لأنك أنت من رفضت تزويجهم لأقاربك .

ـ بالمقايضة كما قالت زينب وأنا لا أملك أولادا إلّا عمر لذا هم لا ينظرون لنا .

ـ ألم تعلمي أنّ أم الساعد زوجت ابنتها نورة لأبن أختها ، والحناء لازالت توضع بكفّ جهيدة في حين خطبت ابنتها لتوأم جهيدة .

ـ نصيبهم من عند الله .

ـ البنت رزقها من عند الله ... توكلت عليك يا كبير ، الحديث سيطول سأذهب للبيت وأعود مساءا.

ـ لا زلت قاعدة ، هناك موضوع جميلة وأريد أن أكلمك فيه .

ـ في المساء .

عدّلت سعدية نفسها وخطت بخطواتها نحو الباب وحين وصلت إليه استدارت.

ـ نادي عائشة لتذهب معي ، لأرسل معها ملابس اشتريتها لزكرياء لأجل تخرّجه ، ليلبسها عمر الليلة .

ـ و لربما سيعود...

ـ لن يعود ، حتى وإن عاد لن يحتاج إلى خرقي .

نادت خديجة عائشة لتمسك بيد سعدية وترافقها إلى البيت ، وما إن أغلقت خديجة الباب حتى تدافعت بناتها نحوها لمعرفة سرّ جميلة .

خديجة وكعادتها صرخت فيهنّ لأداء أعمالهن ثم التدخل في أمر جميلة .

ـ اسمعي زينب أخر مرة تتدخلين في كلام الكبار ، أما الآن اذهبي وأعدي طاولة الإفطار لأخيك ، مباركة أحضري الهاتف لأتصل بإخوتك وأخبرهم بقدوم عمر.

القانون العسكري هي خديجة عند أهلها ، وهي ذلك البالون الزهري الذي عشق منذ لحظات حياته في ممارسة طقوس الأمومة أن يكون ذلك اختيار لون الفساتين التي تلبسها ، ولا يتغير أبدا إلا في بعض المناسبات ، وهي ذلك الهيكل القوي البنية متفرع العضلات ، تكدّست عليه كتل الشحم

ليعطيها سحنة بيضاء لا يمكن أبدا أن توجد قطعة الشمع أبدا إن وضعت عليه ، وتمردا على المتوارث من أهلها امتلكت عيونا زرقاء صافية لا يملّ النظر إليهما ، وقد تشاركت وسعدية في الشعر الطويل والأملس لكن اختلفت وإياها في شغفها بأنواع أصباغ الشعر التي لا تتكاسل في استعمالها لأي مناسبة ، واهتمامها بمظهرها من الأمور التي تعتبر من هدايا الرحمان لهارون وهو يرى زوجته في تجدد دائم لجمالها الذي تحافظ عليه رغم السنون الطوال لزواجهما وعدد الأولاد الكبير الذي كوّن به إمبراطوريته الخالدة ، وليس ببعيد عنّها كان هو كذلك في طوله الممتد وارثا إياه من عمته شجرة النخيل التي يقال أنّها خلقت من نفس تراب سيدنا أدم ، مفتول العضلات مخذول منبت الشعر على تقاسيم وجهه وكثيف المنبت في رأسه ذو اللون الأشقر والعيون البنية الخافتة مكوّنا على مرّ السنوات كرشا لم تفسد تفاصيل ذلك الجسد الذي كان مركز هيام ولا يزال نساء القرية اللواتي يكبرنهن كلّ ما مرّ بجانبهن أو عند مسامع خديجة ، ومن منهنّ عرضت نفسها عليه وعلى أهله بل حتى على خديجة في أن تكون زوجة له ، وقد كان يأبى ذلك

ليس حبا لزوجته وإخلاصا وإنما لدهائه وحنكته ومعرفته بأنّه وفي هذا العالم لن تجيد غيرها احتواءه وجعله كبيرا في كلمته ومظهره النظيف والمرتب ، وطاعة أولاده له احتراما وليس خوفا ولا حتى دلالا ، فغيرها من النساء يطلبن مقابلا لكلّ خدمة يقمّن بها ، ناهيك على اهتمامهن بالمظاهر أمام قريناتهن فيطلبن الذهب والفضة والحرير ، والأدهى والأمر أن حسن تدبيرهن للبيت وأسرة متفرعة كأسرته لن يأتي في مصاف حكمة وصبر واحتواء خديجة إلا في الشيء القليل ، أو ليست هي السيدة التي جاعت وجوعت أولادها ليأكل هو أكله النظيف والغني ، وتكون مجازاة الولد المطيع بمشاركته أكله حينها ، والكلّ يعرف أنّ الوحيدة التي غمست يدها في أكله من بناته الفراشة عائشة اضافة إلى القليل المترد من أحفاده الذين كانوا يتجمعون عنده من حين إلى حين ، فالذي جمعهما ليس حبا أزليا تحدى المصاعب وإّنما تكامل ربّاني لن يفهم أبدا إلّا في قوة تجاوز أولادهم لمصاعب الحياة واحتمالها ، وهو ليس بكلّ هذه القسوة ومحبة النفس ، لأنّ أولاده وحين كبروا علموا مقدار اليتم الذي عايشه وحاجته للحنان والدفء الأسري ، وقد فقد والديه وهو لم

يتجاوز السنة من عمره فعاش متأرجحا بين عمّ وعمة وخال وخالة إلى أن بلغ سنّه القانوني فانطلق لحياته الباردة التي لا معنى لها ، إلا في حكاياته البطولية التي يحكيها لهم وهو ينتصر على الموت حينا وعلى المصاعب التي استسلم لها أقرانه حينا آخر ، فقد أحبهم بصمته وعلّمهم الصبر في أن لا ينتظروا شيئا من أحد وإن كان هو ، لأنّ التسول لأجل العطف والحنان والاهتمام يجعل المرء ضعيفا تعصف به أهوال الحياة بين بشر بات البرود والجفاء يغزوهم رويدا رويدا ، لذلك لم يحاولوا التمرّد عليه والمطالبة بما هو لهم ، لأنّ معنى التمرد يعني أن يقفوا في وجهه جميعا ليجد نفسه عاريا من جديد فيبرد ذاك البرد الذي غادره منذ زمن ... فرضوا به هارون زمانه زوجا وأبا وجدا وجارا محبا لذاته دون أذية أحد غير خديجة التي ترى في جبروته ذاك منتهى امتلاكية الحب وسطوتها .

لحظات حتى طرق الباب لتصفق خديجة لمعرفة الطارق ، فتلقى الإجابة منه وتعرف أنّه ابنها أحمد ، وحين فتحت مباركة الباب ، دخل أحمد وعائلته وكذلك الخالة مريم لتستقبلهم أحضان خديجة وفرحة بناتها .

عادت عائشة التي كانت رفقة سعدية وكمال الذي ذهب رفقة والده الذين ملأت الفرحة قلبيهما الصغيرين ، خاصة وأن الخالة مريم قد أتت لتنقلهما إلى عالم الجنيات .

بعد أن أكمل عمر استحمامه وحلّقه لذقنه ، أنضم إلى العائلة مسلما على أحمد وخالته ومن حضر رفقتهما مجتمعا معهم بعدها على طاولة الإفطار.

جميلة

إذا الكل يعرف عدانا نحن ؟

أحمد

ـ طبعا أولست أخاه الكبير .

عمر

ـ أردت أن أجتمع بكل عائلتي فور عودتي .

خديجة

ـ إذا لن أتصل بأخواتك .

أحمد

ـ ماعدا يمينة يا أمي لم أتمكن من التواصل معها ... لذا حاولي الاتصال بها .

ـ عاثرة الحظ ابنتي حتى الاتصال بها مستحيل .

زينب

منذ أسبوع ونحن نحاول التكلم معها لكن بدون جدوى .

أحمد: لاشك أن شبكة الاتصالات مقطوعة عندهم سأتصل برشيد ليعلّمها.

مباركة

الأمر سيان فهو في نفس المنطقة .

أحمد

لقد غادر المنطقة توا نحو العاصمة وحين يعود مساءا سيذهب إلى بيتها .

دقائق اليوم تمضي وهم في ذلك الجمع المليء بالدفء والمحبة ،مع غياب هارون الذي اعتادوه ليرخي الليل سدوله ، وينام كمال وعائشة وكذلك محي الدين ومصطفى وهديل غاضبين لأنّ مريم لم تحك لهم ، بحجة أنّها متعبة من السفر وأنّ لها الكثير من العمل غدا .

مع الذبائح التي انتشر عبق دمها في حوش الدار اندمجت لحظات الصباح الباكر ، وهي تستمر في ضمّ كل العائلة دون غياب أحد منهم ، ليتواصل عمر مع أحبته وأصدقاءه لدعوتهم إلى العشاء الليلة ، وبينما هو وسط الذبائح وأصدقاءه حوله لا يضيعون لحظة في الابتهاج بعودته ، رنّ الهاتف وحين قرأ من المتصل لاح نظره إلى سعدية التي كانت تدخل البيت .

ـ يا خالة زكرياء على الخط .

نظرت له سعدية ثم دخلت دون أن ترد ، فما كان إلاّ أن رد على الاتصال.

ـ مرحبا زكرياء .

ـ أهلا عمر، مبارك لك نهاية الخدمة الوطنية، أسف لأني لم أقدر على المجيء لأشاركك فرحتك.

ـ هانت عليك صلتك بوالدتك فلما نلومك على صداقتنا .

ـ أنا لم أقطع صلتي بها ، فقط حظيت بفرصة ولا أرغب في تضييعها وسأعود .

ـ تعود ولمن ... هي لم تعد تريدك .

ـ سعدية هي أمي ، وهي ملكي أنا وليست لأحد أخر .

ـ المهم لما تتصل ؟

ـ أأمي بخير،هي لا ترد على اتصالاتي ، أحدث لها مكروه ؟.

ـ هي بخير ، ماذا تريد أن تقول لها ؟.

ـ قل لها أني اشتقت لها وسأظل ابنك الوحيد .

ـ أنت مخطئ منذ غادرت اعترف لها الجميع أنّهم لطالما تمنوها أما لهم .

ـ اهتم بها وقل لها أني مشتاق لها .

ـ لا توصيني على والدتي .

أغلق الخط وهو ينظم لأصدقائه إلى أن قابله شاب غريب عن القرية ، لأنّ الجميع كان يوجه نظره نحوه.

ـ سمير مرحبا ، أهلا وسهلا .

وأخذا بعضهما بالأحضان ، وبعدها همّا في حديث متواصل ويتوجهان نحو هارون الذي كان رفقة بعض رجال القرية ليأذن به عمر لأنه يحتاجه .

انزو الثلاثة بجانب من الدار .

ـ أبي هذا سمير الصيدلاني الذي تقدّم لخطبة جميلة .

هارون

ـ لكن هل أتى وحده ؟

نظر عمر لسمير ليعطي حجته

ـ في الحقيقة أتيت وحدي لأخذ موافقتك ثمّ في المرة القادمة سأحضر أهلي معي لأن مدينتي وهران وهي بعيدة.

هارون

ـ لكن عمر ألم تقل أنه من الولاية ؟ وهران بعيدة هذا ما لن أقبله لبناتي .

أحمد

ـ أعرف يا أبي ،هو من وهران لكنّه مستقر هنا بحكم عمله.

ـ حسنا يا ولدى ،عمر لم يرسل في طلبك إلا بعد أن وجدني قد اقتنعت بالفكرة مبدئيا ، ولكنّي لن أقول شيئا قبل مجيء أهلك ،وليكتب الله الذي فيه خير .

ابتهج قلب سمير للخبر ، وانضم ليشارك في عشاء عمر إلى الصباح الباكر حين غادر القرية وقد بات يعدّ الأيام بالثواني ، ولأن الأيام أيام عطلة لم يغادر أحد من القاطنين بعيدا لحضور خطبة جميلة.هارون لم يكن له أي منفذ ليرفض سمير وهو شاب مثقف ويملك صيدلية بالولاية ، كما أنّه يملك سكنا خاصا ، وكذلك حين أكدت عليه خديجة أن جميلة قد تعدّت الثلاثين ، وما من خيار لها لآنّ العمر لا ينتظر النساء ، طبعا عليه أن يرضى و فوق ذلك فعمر قد سأل عن أخلاقه وحسبه ونسبه ، فوجد أنّه من جذور طيبة ، وبذلك تمّت خطبة جميلة من سمير وهو الشاب الذي عاش مأساة

وفاة عروسه في اليوم الأول من زواجهما ، وذلك لأنّها كانت تعاني مرض القلب في حالته المحرجة وهو لم يعلم بحالتها إلّا بعد أن أجري لها التشريح بالمستشفي ، فعزف عن الزواج لمدة عشر سنوات ، وحين تعرف عن جميلة ،استعاد ثقته بالزواج خاصة بعد أن رأى فيها المرأة المتعقلة التي تتعامل وفق معطيات الواقع ، جميلة وعمر لم يريدا إخبار العائلة بهذا المنعرج في حياته فيرفضونه لمجرد "لعنة النحس " التي يؤمن بها أهل القرية.

بدأت التحضيرات للزواج الذي يرتقب أن يكون بعد ستة أشهر من الخطبة وقد ساعدتها يمينة بالنصائح والتوجيهات لإتمام ما يهمّها ، دون نسيان أي تفصيل لأن يمينة لم تغادر إلى بيتها منذ مجيئها أيام عودة عمر ،لأنّها لم تتحمل الظروف المزرية لعائلة زوجها الكبيرة الأفراد و المعيل الوحيد هو شيخها ، وفي ظروف كهذه تظهر مواطن الحنان لهارون عجيبة ، لأنّه وقف لجانبها رغم أن المتداول عند عشائر القرية "أن من أعطى ابنته ينسى غطائها " خاصة وأنّ لها أربعة أولاد ، مانحا إياها غرفة بجانب من الحوش في حال أراد زوجها المجيء والاستقرار عنده وهي الآن

تنتظر تنازله عن غروره ويأتي إلى عائلته ويعيش معها في حين جميلة تنتظر زفافها .

أما سمير فقد استبشر بجميلة خيرا خاصة وأن مصالح البلدية قد باشرت في نشر أنابيب غاز المدينة ، وبيته من أوائل البيوت التي ستدعم بالغاز.

انقضت الستة أشهر وغدا يوم زفاف جميلة، وقد عادت من إحدى مراحل تجهيزات العروس والكلّ لجانبها ، بعد أن أقامت لها قريباتها اللواتي رافقنها حمام عروس والذي لن تنساه أبدا مليء بالبهجة والفرح لأجلها.

دخلت سعدية غرفتها مهنئة لها بالزواج والحمام لتتربع لجانبها .

تطلب من إحدى البنات أن تحضر لها مشروب النعناع ثم تنظر لجميلة ملّيا وتدعو الله أن يبارك لها وتقول لها .

ـ آه يا ابنتي لولا تلك الليلة السوداء لكنت كل سنة أقيم عرسا ببيتي ، وأما أخر قبس نور لي في هذه الدنيا فابتعد...لذا خذي هذه القطع من الذهب ـ وهي تضع في

حجرها شيئا لفّ في منديل صغير- ليبارك الله فيك ويمنحك طول العمر لتمنحيه لأحفادك .

- لا يا خالة أنا لا أطمع فيك ، يكفي بركتك لي.

- كان ينبغي أن تكون لعروس زكرياء ولأنّها لن تأتي خذيها واسكتي .

أمل من الحاضرات لحظتها في غرفة جميلة وهي تهمّ للخروج مغرورقة العينين.

سعدية : مهلك .تعالي .تعالي

عادت أمل بخطاها لتجلس لجانب سعدية ، وبمجرد جلوسها ضمتها لها وربتت على كتفها وقالت .

- أعرف عن كل دمعة هي لزكرياء ،أعرف النار التي تغلي في قلبك ،أنت ابنتي يا أمال وقطع الذهب لا تكفيك ،فأنا لأجللك أحيا الآن و ستزفين كجميلة قريبا .

أمال التي كبرت وزكرياء شاركته نفس الظروف ، لم تعرف دقات قلبها غير النبض له ولا موجات تفكيرها إلا ترديد اسمه وكلامه وأحلامه ، يوم استقبلتها سعدية وهي تخرج

للحياة ولفّتها بقماطها واضعة إياها على صدر والدتها توكلت على الله وخطبتها لابنها ، لتكبر ويكبر انتماؤها لزكرياء الذي نسيه أهلها منذ ذلك الحين معتبرين إياه مجرّد تبريكات بمولود رزق للعائلة على أمل العمر الطويل لها ، لكم كانت شفافة في اخلاصها له بينما أنّه لم يعط هو الآخر أهمية لذلك ولم تكن يوما ضمن أولوياته ، كانت تعرف ذلك مرجعة السبب لحرقة قلبه في رؤية النور كباقي الناس فأجلت كلّ شيء لحين يتحقق ذلك ، وهاهو الواقع المرير الذي يفرض نفسه دائما فقد ذهب لحياة جديدة ولا يتصل بها إلا ليطمئن على والدته ، فأنانيته لم تكن مع والدته فحسب بل مع كلّ قلب أحبّه ورأى الحياة فيه .

في مساء اليوم الموالي زفت جميلة إلى بيت زوجها سمير ،وقد اختار سمير أن يمضي رفقتها دون أي أحد إلى بيتهما ،مع تأكيده مجيء الجميع اليوم الموالى ، لتكون تلك الليلة رهن إشارة العروسين في كامل البيت وكل الدقائق ،جميلة كأي امرأة تعرف أن زوجها قد سبق له الزواج ،كانت قد اشترطت عليه أن يغير كل تفصيل فيه ،لذلك كانت ومع خطواتها الأولى داخل بيتهما تراقب وتبحث عن كل تفصيل

اقترحت كيف يكون ، وقد كان سمير عند كلمته مع كل تفصيل ، إلى أن وصلا إلى غرفة نومهما ، فلم تجدها كما طلبت بسيطة ووفق ألوان معينة ، وإنّما جعل منها غرفة لولهة ظنّت فيها جميلة أنّها الأميرة النائمة في إحدى غرف القصر فنظرت له متسائلة ، فاقترب منها ليمدّ كفيه نحو خصرها ويحكم قبضته ويجذبها إليه وقال : كم من أميرة يمكن لي أن أحظى في هذه الحياة القصيرة ، فلا أجعلها موطنا لي في غرفة لا تعبر على ما فيها من حسن وبهاء إلهي .

اتضحت ملامح حياء النساء في خديها ، فطأطأت رأسها ، يرفعه سمير بأنامل يديه ويقول : أنت اليوم لي ، وهذه العيون العسلية لن تنظر بعد الآن إلا لسمير ملكا الذي يعدها بالحب والوفاء مدى الحياة .

انقضت ليلتهما معا بين أحضان أنوار الشموع ،التي منحتهم السكينة لبعضهم البعض وعبّقت نسيم لحظاتهما بأروع العطور ، وقد رضي بهم سمير شهودا لأنّه يعلم أنّه وبمجرد أن تشرق شمس الصباح لن يكون هناك شاهدا إلا اندثارهم وذوبانهم .أشرقت الشمس وقد أتت خديجة وبناتها وكذلك

عائلة سمير لتهنئة العروسين ،وحين دخلا المنزل ،وذلك لأن سمير أعلمهم أنّه يضع نسخة عن المفتاح عند شجرة التفاح التي أمام الباب.

جلس الجميع بقاعة الاستقبال في انتظار العروس لكنّها تأخرت ، فتوجهت زينب إلى عرفتها لتوقظها ، وحين وجدتها نائمة لم تشأ إزعاجها ، عادت إلى الغرفة ، إلّا أن عائشة لم تطق صبرا دخلت غرفتهما مرتمية فوق السرير تحركهما ليستيقظا ، ورغم محاولاتها العنيدة لم تفلح ، وحين ملت من المحاولة عادت لأمها وخاطبتها.

ـ أمي لم يستيقظا رغم أني مشيت فوقهما .

ذهبت الأخت الكبرى لسمير لتتفقد الأمر وما هي إلّا لحظات حتى سمعها الجميع تصرخ وتبكي.

ـ يا إلهي سمير ،جميلة ...

الجميع نحو الغرفة صعد لينظروا أنّه وبدون أي تنبيه غادر سمير وجميلة الحياة معا ، من يتأملهما لا يرى إلا الهدوء والسكينة التي عمتهما في ليلتهما الأخيرة بالحياة ، لكن من يرفض رحيلهما يصرخ وينتحب ... مات العروسين في

صباحية كانت لهما مع الأهل دون أن يعيشاها ، ما أبشعه الموت رغم أنّه قضاء الله وقدره ، بل ما أظلمه وهو يختار أرواحا بدأت الحياة لتوها في ابهاجم ، مات اليافعين ليحمّلا همّ دفنهما لأناس سهروا الليل وهم في سمر عن حياتهما وعن تفاصيلها الصغيرة والكبيرة ، كيف ولدا وكيف عاشا ، بل حتى مواقفها المضحكة والجميلة والحزينة ... ما أبشعه وهو يأخذ جميلة سيدة القرارات الحاسمة والعملية من بنات هارون الذي نسي طعم الموت وهو يواري جدّته الثرى قبل سنة من زواجه ، لا يدري أحد بقدر ما يدريه الموت حجم الصقيع الذي سيغمر فؤاده لسنوات ، ما أبشعه حين عجزت التفاصيل الجمالية التي أكدت جميلة على تواجدها ببيتها الجديد وكذلك العهود التي تعهّد بها سمير في أن يحبّ زوجته ويرعاها لتكون سيدة كل حياته .

دفن سمير وجميلة لجانب بعضهما بمقبرة بقعة الدواليك هكذا شاء هارون فارضا الأمر على عائلة سمير فابنته لن تبتعد عنّه ، وبعد أن علمت العائلة أن سبب وفاتهما اختناقهما بالغاز لأنّ أنبوب غرفة النوم كان يسرّبه دون غيرها من الغرف ، بدأت الأحداث تتسارع رابطين سبب

موتهما بالعالم الروحاني خاصة وقد علموا أنّ سمير سبق له الزواج ، وقد توفيت زوجته في نفس الغرفة ، وفي ليلتهما الأولى . ليصبح وفاتهما لعنة جعل الناس يحكونها في أنّ زوجته الأولى لم تغادر تلك الغرفة طوال تلك السنين ، لكنّه وحين قرّر الزواج ، وجعل من زوجته الجديدة تدخل غرفتهما قرّرت أن تغادر لكن رفقة سمير ، ولأنّ حبّه وتعلقه بجميلة جعله لا يذهب معها إلّا وهي برفقته ، وتمّ تناسي بأنّ كلّ نفس يتنفسه الإنسان هو بإذن الله .

فبعد أن خلد العروسين للنوم وانطفأت الشموع بدأت روح كريمة زوجة سمير المتوفية تجول بالغرفة مضطربة تبحث عن سبيل لينتبه زوجها لها لكن دون جدوى ، لتقترب من سريرهما وتميل بجانبه تتأمله وهو غاط في نوم العميق ، ممررة أنامل يدها على وجهه تدعوه للاستيقاظ لكنّه لا يستجيب لها ، فهي قابعة في عالم الأموات تريد روحها أن ترى السلام في قبرها ، وحين لمحت جميلة نائمة على ذراعه جنّ جنونها وأرادت الفصل بينهما ، لكنّها فشلت ما جعلها تتربع على الاثنين وتمدّ يديها لنحرهما تأخذ منهما الحياة التي حرمت منها ، وهما نائمين لا يشعران بها ،

فتأخذ بإخبارهما أنّ سبب موتها لم يكن بسبب قلبها ، بل بسبب تعويذة السحر التي كانت تلقيها ابنة عمّها تلك الليلة وهي التي لم تتقبل زواجها من الرجل الذي لطالما أرادته ، قدّر الله لها الموت حينها لكن في ذلك ظلم ، فهي لم تفعل ذلك عمدا بل الظروف من اختاره لها ليسكن قلبها إليه ، نجح السحر وغلب الوفاء والحب ، فماتت هي ليلتها عذراء في هودجها ، ولأن ظمأ شوقها له لم يرو عليه أن يكون معها حيث هي ، فقد كانت معه طوال تلك السنين معلقة روحها لم تلق السلام راضية بذلك ، لكن أن تستقر حياته وتبقى تنظر تشاركه فرحه وبهجته بوجعها ذاك ما لم تتقبله ، فأخذته معها ، وترافقه جميلة لأن الروح المعلقة أرادت السلام لتلك الغرفة . هكذا كانت قصة وافتهما بالنسبة للجميع ماعدا أطباء المستشفى الذين أعطوا تفسيرا علميا لوفاتهما .

هذه سنة الحياة نواري الأحبة تحت الثرى لنتركهم هناك يواجهون مصيرهم الأبدي والسعيد فيهم من رجّح ميزانه على الخير ورضا الرحمان ، فكلّنا سابقون ولاحقون لها ، ويمضي الأحياء لصراعهم الدائم لأجل البقاء على وجه الأرض بين ساع لكسب الحسنات وبين متعلّق كلّ التعلّق

بهذه الدنيا باحثين عن الأنس والدفء والبعد عن الوحشة ... باق هو وحده ذاك الميت في وحشة مثواه الأخير ، وباق هو وحده قلب خالد الذي اشتعل فؤاده بحرّ الهجر وركنت في قلبه شظية من روح جميلة ليبكيها ، محترفا الاصطبار على قسوتها ورفضها له كل تلك السنين التي مرّت ، مواسيا نفسه أنّه يكفيه وجودها بالحياة بجانبه أو في مكان أخر ، المهم أنّها على وجه الأرض تتنفس الهواء ذاته وإياه ، لكنّها الآن غادرته فلم يجد زاد من الصبر ليواري ألمه وآهاته ، لا دفء أسرته وأولاده كفاه ولا فكرة أنّها منحت نفسها لغيره ، المهم أنّها ا بمفردها في مكان مظلم وموحش ، وهو الذي لطالما تقبّل قسوتها ولا مبالاتها اتجاه قلبه ، لكنّها كانت موجودة بخطاها الثابتة وهدوءها الذين لطالما حيّرا أهل القرية وهي تحقق أحلامها وتفرض رؤاها عكس النزر الكبير من فتيات القرية ، لن يستطيع بعد الآن استراق النظر لها من وراء الجدران وهي متجهة لعملها ، لم يعد بمقدوره أن يبحث عنها ولا أن يتنفس عطرها ، فمجرّد أن احتلت شظية من روح جميلة داخل قلبه وهو منهمك في تنقية مجرى الساقية لعبور الماء ببستانه ،

متلقيا اتصالا يزّفه الفاجعة ، يسقط الهاتف بمجرى الساقية ويصرخ مفرعا الكون .

ـ عيليني صبرا على الحنظل الذي لا تنفكين تسقينني إياه يا جميلة ، جميلة عشيرة الفؤاد وسلطانة الروح ،صبرا ،صبرا خالد صبرا .

غدرت به جميلة مرارا ،حتى الصبر خانه ولم يقدر دحض ألامه ، ومن حسن وجعه أن زوجته وأولاده غير موجودين بالقرية فقد تركهك عند أهلها تحضيرا لختان ولده وإلا لكان قلب زوجته هو الآخر معذبا ذلك اليوم وهو يرى زوجه يبكي امرأة غيرها ،فيتوجه العاشق الباكي إلى الوقوف لجانب عمر لحين موعد دفنها ، ولم يفكر أحد على منعه من أن يهتم بجنازتها ، فما على القلب من سلطان ، والقلوب يومها كلّها مفجوعة ، حتى أنّه قد حمل نعشها على كتفيه وهو يردد في خلده "جميلة كانت تمشي كانت تمشي فوق رمشي فاقتلوها ب هدوء وأنا هو الذي يعطيها نعشي "

وحين وصلوا المقبرة تناول فأس الحفر وحفر قبرها مع والدها وأخيها وضعا النعش بالقبر وإياهم تاركا دموعه

هناك علّها تروي ضمأ عطشها ، وهم يرمون التراب عليها كان قلب خالد يردد " وعزوني يا ملاح في رايس البنات ، دفنوها تحت الترب ناري مقدية ".

بعدها أخذ يبتعد عن الأنظار ولم يره أحد ، وقد انتشر بالقرية أنّه بعد وفاة جميلة بأشهر رزق بفتاة ، وحين علم بأمرها توجه إلى حيث تكون عائلته ليرى ابنته وقد أخبر صديقه الذي أحضر له الخبر ،أنهّ سيعود لعائلته و أن اسم الطفلة سيكون جميلة لعلّ القلب يخفق ويتمكن من العيش لأجل أولاده ، لكنّ مقادير الله أبت إلّا أن يتمكن من لقاء جميلة الحبيبة دون أن يتمكن من التكبير في أذن جميلة الصغيرة ، فقد تعرّض له مجموعة من اللصوص على حين غفلة ، وأردوه قتيلا بضربة على رأسه ، وجده بعض معارفه عند شجرة قريبة جدا من بيت عائلته الذي كان في حدود القرية وقد نزف على أثر تلك الضربة حتى الموت ، حين وصل الخبر لزوجته بكيت رغم أنّها كانت ساخطة على ما فعله لأجل جميلة ، لكنّها غفرت ذلك لمجرد علمها أنّه قد كان عائد إلى عائلته و مات بالقرب منها بعيدا عن حبيبته ، فالقلوب غريبة لا يجيد أحدا معرفة السيطرة عليها ، فهي

ورغم أنّها تزوجته زواجا تقليديا وعلمها أنّه يحب غيرها ، أحبّته وقدرت وجع قلبه واحترمته ، فالمهم بالنسبة لها أنّه كتب لها في الدنيا وسيكتب لها في الآخرة .

طويت صفحة جميلة لتعود الحياة في القرية إلى نظام الدواليك ، وهاهي سعدية كما وعدت أمال تحضَر لزواجها لأنّها حين أرادت أن تبدي اعتراضها وانتظارها لزكرياء ،حتّمت عليها أن تقتنع أنّه انتمى إلى تلك المرأة التي فرقت العائلات ، رغم أنّها ربّته وتعبت لأجله فعاملها كمسودة امتحان رميها بسلة المهملات بمجرد إنهاء الامتحان ، فالحياة بالنسبة إليه مجرد فرص .

رضخت أمال لخالتها سعدية وزفّت مع زوجها إلى الصحراء حيث ستعيش السلطانة المدللة ، فهي زوجة مهندس البترول الذي يتقاضى أضعاف ما قد يتقاضى زكريا من وظيفته ، وهكذا غادرت أمال القرية تاركا وراءها كلّ أمالها وأحلامها ، نسمة خفيفة كانت وستضل ، لم تتعب أحدا ولم تؤرق أحدا ، طائعة راضية رغم الكمّ الهائل من المشاعر المتضاربة في تعلّقها بالوهم الذي رسمه لها الأهل وبعدها ولاؤها ووفاؤها لحب كان من طرف واحد .

غضبت عائلة هارون حين علمت أن سعدية تحضر لزواج أمال في حين لم يمضي الكثير عن وفات جميلة ،لكنّ سعدية عاتبتهم كثيرا لأن الحياة لا تعطي الفرص دائما ، وأنّ من مات لن يعود لأنّ الحزن يملأ القرية ، ولأن جميلة ابنتها كذلك ، لن تزف أمال في موكب حافل بالأهازيج كما وعدتها ، وإنّما عروس تحمّلت في صمت سنين طويلة ليتقدم زكرياء لخطبتها ، وقبلت على مضض زواجها وهي تزف بهدوء وستر تام لرجل لم تعرف لون عينيه حتى .

سعدية ليست إمبراطورة القرارات الحاسمة وإنّما هي مواطن بقرية الدواليك ، القرية الهادئة التي تمضي أيامها في سكينة ، رغم أفراحها وأتراحها فالمار بها كعابر سبيل ، يجد أنّها حياة لم تعرف غير احتواء منازل بها الشيء اليسير من البشر ، فيخشى أن يطرق بابا ولا يفتح ، وإن فتح يكون ساكنه شاب عازب لا يملك القدرة في إيواءه ، لكنّها تأوي أرقى العائلات في التكامل الأسري ، لتكون الحياة بها في تعريفها السطحي متشابهة ، لكنّها طبعا ليست كذلك ، فرغم أن الجميع يجيد إعداد اللبن إلّا أن كمية الزبدة لا تأتي متساوية .

بعد صلاة الجمعة من أحد الأيام طلبت سعدية من زينب وحيزيه ومباركة القدوم لمنزلها ومساعدتها في ترتيب البيت، وغسل أطنان الصوف التي ستحضّر بها أفرشة متنوعة لأمال ، التي زفّت بثوبها الذي على جسدها دون

غيره ، لأنّه ومن غير المنصف بتّر كلّ حقوقها لأنّها بنت بارة وطائعة للكبار من أهلها ، تستحق الفرح والعرفان بنقاء قلبها الذي وجدته عند زوجها ، وقد غمرها حبا واحتراما لذاتها ، جاعلا إياها نصفه المهم في حياته وبدونها لم تكن لتكتمل نعم الله عليه ، فأمال هي المخلوق الغريب الذي خلقه الله بعد أن خلق السماء والأرض والتراب والهواء والشجر والعواصف والأمطار والبحار وغيرها من المخلوقات ، ليأخذ بعظمته من كلّ واحد مما سبق شيئا ،فيخلق أمال لزوجها فريد وغيرها من نساء الأرض على مرّ العصور ، فبضع أفرشة وشيء من التعب لن يكفيها حقّها الذي بتر عندهم ، ورغم ذلك فحبّها لسعدية لا يعادله حبّ ، لذلك لطالما كانت راضية بقراراتها .

وهنّ كذلك كان زكرياء لا يتوقف على الاتصال بهاتف والدته لكنّها لا ترد ، فالذي في قلبها ليس غضبا لتنساه ، وإنّما وجع لحدّ تلك اللحظة ينخر روحها وقلبها ، لذلك دائما ما كانت تقول أنه إن حدث وغفرت له فإن ذلك لن يشفي الجرح داخلها .

ويبقى الفضول سيد المواقف في الكثير من المرّات ، وهذا ما جعل زينب تردّ على المكالمة .

ـ السلام عليكم زكرياء

ـ أمال

ـ أنا زينب أخت عمر ،أمال تزوجت منذ أشهر .

ـ هل والدتي عندكم ؟

ـ بل نحن عندها .

ـ هي مريضة؟ .

ـ لا ، نحن نساعدها في غسل الصوف .

ـ ألا زلت تعمل رغم أني خلصتها من أتعابها .

ـ حسنا سأغلق ... اطمئن هي بخير وكذلك كل ما تنهدت واستغفرت الله تستغفر لك كذلك .

ـ مع السلامة إذا ، أريدك أن تحرص على عدم خروجها اليوم .

ـ لأبأس ... لكن لما ؟

ـ قومي بذلك فقط . وأغلق الهاتف .

وضعت زينب الهاتف وخاطبت نفسها .

ـ غريب الأطوار ومتعجرف.

قرب موعد الغداء ، تربّعت سعدية عند موقد النار وأخذت تحضّر للبنات شيئا من الأكل ، وهي لا تنفك تغنّي لهم ما توارثته من الجدات ، وفي تلك اللحظات طرق الباب وتتوجه زينب لفتحه وحين سألت من الطارق ، أجاب أنّه زكرياء ، وضعت الخمار على رأسها ودون أن تنظر إليه هرولت نحو أختيها وأشارت لهما بارتداء الخمار .

في تلك اللحظة كان زكرياء قد أكمل خطواته وهو يتبع رائحة أكلة الثريد الذي تحضره أمه ، وقف عند باب غرفة المعيشة .

ـ رائحة جميلة لطعم أصابع أمي اللذيذة .

توقفت سعدية عن تحريك الأكل واضعة الملعقة على جنب ، في لحظة واحدة أرادت الوقوف لتعانق ابنها ، لكنّها سرعان ما تراجعت واستدارت لقدرة الأكل.

هو واقف بوسامته وطوله المتوسط لجسد ممتلئ لكن ليس لحدّ البدانة ، ، ويحيط محيا وجهه لحية خفيفة لا ينسى أبدا

تعديلها عند الحلاق ، متصلة بشعر غير كثيف يكاد يفقده على مساحة بعيدة عن جبينه ، ينتظر ردّ قلب يعرف أنّه لا يمكن له أن ينكره العمر كلّه .

أخذ يقترب نحوها بنفس الخطوات التي اعتاد التقدم بها وهو يخشى التعثر بشيء ما ، وذلك الذي حدث فقد تعثر بإناء الأكل الذي وضعته لأجل البنات ، تحركت غريزة الأمومة لديها وتساءلت وهي لا تزال مستديرة لا تنظر إليه ، لما لم ير الصحن وقد أجرى العملية ، وحين وصل لها جاثيا على قدميه ، ثم يمدّ يديه يتحسسها لعلّها تستدير ، تيقنت أن هناك خطبا ما ، استدارت بوجهها لتبصر ما أشعل نار قلبها لأنّ عيني ابنها سترتا بضمادة ، نسيت ألمها مادة أنامل يديها تسأل بهما وجهه .

ـ ما به ابني ... ماذا حدث لك زكرياء ؟

وهو ينغمس بين كفّيها ويخطف القبل منهما .

ـ أمي هما بخير ... لكن قلبي عليل بفراقك ...أنا أسف ... سامحيني أمي .

الأمومة تحاول العودة لطبيعتها لكنّها تصرّ على كبّتها وتغلق عليها بإحكام داخلها ، وما كان على زكرياء إلّا أن انحنى لحجرها غامسا رأسه فيه وهو يردد : أرجوك أمي ، أنا مشتاق والله أنا مشتاق .

في تلك اللحظات غادرت البنات تاركات الأم و ابنها معا .

ـ أمي لقد أجريت العملية لأراك دون غيرك ... أرجوك صدقيني ...لم أخترها دونك .

ـ لم تعتد الكذب ... هل اكتسبته منها ؟... أنت أتيت حين طفح كيلك منها وهي تتزوج للمرة الثانية بعد ذهابك معها.

زكرياء بعد أن تربع بجانبها.

ـ طفح الكيل من سوء قراراتي التي أبعدتني عن أمي وأخذت مني أمال ، لكنّي ابنك أمي ، انزعي الضمادة عني لأراكي وإلا سأرمي بوجهي في هذا الموقد .

وهو يحاول فعل ذلك دفعته سعدية وبعدها ضمته .

ـ أتريد أن تزيد من نار فؤادي يا ولدي ، أنت ابني مهما كان حالك

بعد أن هدأ وهي تضمه همّت سعدية لنزع الضمادة ، عندها طرق الباب فهمت لفتحه.

ـ لا تذهبي أمي ، حتما قد أتت ومعها الطبيب ، وأنا لا أريد رؤية أحد سواك الآن .

ابتسمت سعدية في لحظة الغرور الأمومي الذي يغزوا كل لبؤة انتصرت وأعادت ابنها إلى الأحضان ، ونزعت الضمادة عنه ووضعته بجانبها ، وبقيت تنتظر أن يفتح عينيه ، وهي كذلك تذكّرت ذلك اليوم الذي اجتمعت فيه وزوجها الإمام وأولدها رحمهم الله ، ليشهدوا لحظة رؤية عيني زكرياء لأول مرة ، فجالت الدمعة على الخد الأيسر تنتظر .

كانت لحظة الانتظار لا تعدّ بدقائق الساعة بل بعدد دقات القلب ، وصدقا كانت نفس رفّات الجفون فزكرياء صغيرها الذي سيظل كذلك دائما ذو العيون الواسعتين والبنيتين .

هاهو زكرياء يجمع تركيزه ليقول :

بهية هي أمي ، نعمة من الله وما أراد من جمال فيها سبحان الله ، ضفيرتين تمردّت على رباط المنديل وانسدلت على صدرها ليلتقيا معا بحجرها ، وشم بالجبهة يزيدها وسامة

حين حملته أحداق سوداء لن أختار غير شبه حاملتهما حورا في الجنة ـ وهو يمدّ إبهامه الصغير نحو أنفها ـ آه من العزّ والأنفة والشموخ تتوسط محياها ، ولما كذب الشعراء في وصف شفاه محبوباتهم بأنها الكمال ، أو لم يفكرو في النظر لهاتين الشفتين اللتين تكدّست حولهما التجاعيد ، والتي أبدا لم تقلل من رفاعتهما ، إنّها أمي أيها الكون ، وهي الممتلئة التي لم يضق حجرها عني لهذه اللحظة ، بوركت لي أمي ثم انحنى إلى حجرها ليتوسده وهو يردد "دعي الباب يطرق ، دعي يوم القيامة يجيء لكن لا تعكري صفوة هذه اللحظة " .

أبعدت سعدية قدر الأكل عن النار وبقيت تداعب خصلات شعر ابنها ، لينام لساعات بعدها ، أثنائها كانت سعدية قد استدعت زينب من منزلها ، فقط لتقدم لها وسادة تضعها تحت رأس ابنها ، وحين عادت زينب إلى بيتها بقيت لساعات تفكر في روعة تلك اللحظة ، وهي تسأل نفسها أيهم الطفرة والدتها أم سعدية ، والدة لم تجد أي واحدة من بناتها أن يجمعن لها قدرا كبيرا من الاعتراف بالحب والحنان ، لكنهنّ راضيات لقناعتهن أنّه لا وجود لأم لا تحب

أولادها ، وأنهنّ وجدنّ لأجل أن يكنّ المتسع الذي يمارس فيه كلّ من هارون وخديجة طفولتهما في مفهوم السيطرة و إزاحة الخطر من تعاسة القدر الذي جمعهما .

اقتربت عائشة منها وطلبت منها أن تصلح لها يد دميتها المعطوبة فأخذتها بكل ابتسام وشرعت في إصلاحها ، وحتى أنّ عائشة اقترحت عليها أن تخيط لها ملابس جميلة فكان أن فعلت ، حين أكملت أخذت عائشة دميتها وهي مبهورة من تصرف زينب خاصة وأنها كانت ترفض أن تقوم بأي شيء لأجلها .

أما زكرياء فقد استيقظ و تناول الأكل مع والدته وحين اتصلت بركاهم أخبرها أن لا تتصل به و لا تبحث عنه أبدا ،أغلق الهاتف ساحبا الشريحة ليرميها في الموقد .

بعد ذلك استحم واستأذن من والدته في خروجه لرؤية أصدقائه فقد اشتاق لهم وللقرية كلّها ، ما إن خرج عند الباب حتى رأى أصدقاءه قد اجتمعوا سائرين نحوه ، لأنّه صديقهم رغم أخطاءه ، ألحقوه بهم بالأحضان والتحية.

وبهاء ذلك الفرح كون مراد قد أحضر شاحنة والده ليركب الجميع و يتوجهوا نحو الجبل لقضاء ليلتهم هناك .

فحبّهم وشوقهم له جعلهم يحضرون كل ما يلزم لتحطّ الشاحنة بين ضلوع الجبال ناصبين خيمتهم ، بعدها أخذوا في التجوال دون كلل أو ملل إلى أن غربت الشمس فاجتمعوا على موقد النار شارعين في إعداد العشاء الذي اختاروه لحما مشويا ، وكذلك مشروبات غازية دون نسيان الشاي الذي لا يمكن نسيانه في مثل هذه اللحظات.

أصرّ عليهم عمر أنه وبعد أن تنطفئ جمرة فقدان جميلة سيتقدم لخطبة ثريا أخت سمير رحمه الله ، فهنأه أصدقائه وابتهجوا لأنّهم سيفرحون قريبا .

انفرد زكرياء بعمر ليعودا معا إلى أيامهما الماضية ليوضحا ما بقي مبهما فيها ، وخاصة ما لا يمكن البوح به إلّا في لحظات هادئة ونادرة تجمع بين الأصدقاء ، في حين انشغال باقي الشباب في أشغالهم الخاصة ، مراد تناول هاتفه واتصل بمحبوبته السرية ، ومصطفى ونبيل و إسماعيل اجتمعوا على جهاز الكمبيوتر المحمول للتواصل مع

أصدقاهم عبر الإنترنت وكذلك دون أن ينسوا الولوج إلى مختلف المواقع .

أما العيد وهو المتحفظ الذي لا يحب أن يفسد ساعات نومه غط في نوم عميق .

عندها سأل زكرياء عمر

ـ عمر تركتك تخطط لبناء بيت يجمعك بجهيدة ، فماذا حدث ؟ لأعود فأجدها زوجا عند فهد .

ـ كما قلت منذ قليل سأتزوج ثريا .

ـ وجهيدة ؟؟؟

ـ لم تعد كذلك ... الذي حدث هو أن الله سبحانه وتعالى أثبت أنهّا خرجت من ضلع فهد ، ولم أكن أنا إلّا طاقة للمشاعر الجياشة التي أردنا عيشها ونحن مراهقين .

ـ يعني نسيتها

ـ أصبحت امرأة رجل أخر ولا يجوز ذكرها في أي موضوع.

ـ هي لا تهمن بل يهمن عمر .

ـ نحن رجال لا تهزّنا رياح ...ألم أخبرك أنّي اقتلعتها من صدري مع عاصفة زفافها.

ـ لما غدرت بك وتزوجت دون أن تخبرك .

ـ هي لم تغدر فقد كنت أنا من أعطى الأمر أكبر من حقه ، وهي امرأة عملية وفق قانون القرية.

ـ أتعرف أننا نشترك وفق قانون القرية ، فأمال تزوجت عند أول طلب حتى أنّها ذهبت دون أي أهازيج .

ـ أنت مخطئ فقد كانت تنتظرك دون أن تمنحها أي وعد بل مضيّت في غرورك ، وأصدرت القرارات التي طعنت من خلالها والدتك ، ثم أمال دافعت عنك وهذا ما كانت أخواتي تحكيه ، لو لم تجبرها والدتك لما فعلتها .

ـ وإن يكن فقد كانت قوية ولا يمكن لأهلي أن يفرضوا عليها أمر .

ـ إنها ككل النساء يقلنّ بالحب ، وبمجرد وعد للزواج تباشر في ارتداء أبهى الفاستين وكأنّك لم توجد يوما في سجل حياتها ولم تغمرك بأجمل أحاسيس الحب والعشق .

ـ دعنا من النساء الماضيات ، كلّمني عن الجديد .

ـ ماذا أحكي ببساطة أنا أمضي بخطوات جدّ عملية... نالت إعجابي وحين سألتها الارتباط وافقت .

ـ هكذا وبكل بساطة .

ـ أجل ، فليس هناك أي مانع... هي توقفت عن دراستها منذ سنوات. وأنا أكملت العسكرية وبدأت العمل .

واصلا سهرتهما معا لتأخذهما غفلة النوم إلى أن أشرقت شمس الصباح الموالي ، جمعوا أغراضهم نازلين إلى القرية ، وفي طريقهم انفصل عمر عنّهم لأن أخته حيزية وهي ذاهبة إلى الثانوية أشارت له بأن يأتيها ، حين وصل لها أخبرته أنّها تحتاج سيارة للذهاب إلى المدينة على الساعة العاشرة لحضور اجتماع و عليه أن يستأذن أحد أصدقائه بأخذ سيارته .

عاد عمر إلى أصدقائه وحين ذهب كل واحد إلى بيته نظر زكرياء لعمر وسأله : حتما هذه حيزية ، مبارك لها الوظيفة ، منذ متى وهي تعمل ؟

عمر: منذ تخرجها .

زكرياء: ما شاء الله

عائشة تكبر يوما بعد يوم ويكبر إنفرادها بطريقة لعبها ، ولطالما لاحظت أخواتها انعدام الرفيقات لديها ، مرجعين ذلك لأسلوبها الصعب ، لكن ومع مرور الوقت تأكدن أن ذلك حال كل أطفال القرية ، حتى أن الصداقة بين أولاد العائلة الواحدة أصبح نادرا ، فدرجة الوعي لدى الأطفال تجعلهم يتغاضون على تجمعاتهم البريئة التي كانت تحيا بالقرية خاصة تجمعهم بالبيوت المهجورة ، منشغلين بأجهزة الهواتف والألواح الذكية وأجهزة الكمبيوتر للعب مختلف الألعاب ، منذرين لميلاد جيل جديد يختلف كليّا على الأجيال التي عاشت بهذه القرية ، بل على وجه المعمورة كلّها .

الجميع متجمع على وجبة الغداء ، وبينما زينب تحاول إقناع عائشة بأن تذهب لتبتاع لها بعض الأشياء من الحانوت وهي

تأبى ذلك ، دخل هارون وهو مغتم الحال ، فهرولت خديجة نحوه لتضع له فراشا ليتمدد ويرتاح .

ـ كيف حال يوسف هل ارتاح من مرضه .

ـنظر لها طويلا ثمّ أجاب .

ـ ارتاح الراحة الأبدية رحمه الله .

انصرف كلّ لعمله وهم لا ينفكون يدعون له بالرحمة ، أما مباركة فلم تتمالك نفسها فبمجرد خروج والدها الذي لم يطق البقاء في البيت أخذا في السؤال عن ابنه كمال ليلحق به إلى حوانيت القرية ، توجهت نحو الغرفة مرتمية على فراشها تبكي وفاة يوسف.

استغرب أهلها ذلك لكن خديجة وضحت لهم .

ـ رحمه الله لقد كان صديقا وفيا لكم .

عمر خرج من البيت ،أما زينب فدخلت لمشاركة مباركة بكاءها ، عائشة وهي تشاركهما تسأل عما يجمعهما بيوسف حتى يبكيا بتلك الطريقة .

ـ يوسف رغم هذه السنين التي مرّت لازال فردا من عائلتنا السرية

ـ هو لا يستحق ذلك .

ـ لقد كان مريضا منذ صغره.

عائشة

ـ أهو قريب لنا .

ـ هذا ما تفتقدونه في حياتكم ، يوسف كان أحد أهم أفراد شلّتنا التي كنّا نمثل فيها أرقى معاني التضامن و التكافل العائلي ، بتفاهمنا يتفاهم كبار العائلات وإن تشاجر أحد منا مع صديقه تخاصمت العائلتين ، كنّا رائعين يا عائشة لو كنت معنا لعرفت معنى الطفولة .، لأنّه ورغم الظروف المؤلمة لشتى العائلات خاصة في عشرية الإرهاب إلا أنّنا كنّا لا نبالي ، ولأجل مضي تلك العائلة قدما كنّا نجتمع على إعداد مختلف الأطباق التقليدية ، وندعوا ذلك بمعروف القرية ، حتى كبار العائلات كانوا يأكلون منه حتى وإن لم يكن ناضجا جيدا .

عائشة

ـ لم تحك عن يوسف بعد

مباركة

ـ سحقا لأطفال اليوم لا علاقة لهم بتلك الروابط والمشاعر... قلت لك كنّا عائلة .

زينب بابتسامة ممتزجة بالدموع .

ـ يوسف كان الأقرب لمباركة لقرابة السن بينهما ، ولأنّه جرت العادة في عائلتنا تلك أن يتم قران كل ثنائي تقريبا .

بدأنا نفكر و نقنعها بالارتباط ، لكنّ حدث وفرقتنا الأيام لأنّ الرياح جرت بما لا تشتهي السفن ، غادرت عائلة يوسف إلى العاصمة لأجل علاجه ، ومنذ ذلك الحين بدأت العائلة تتفرق فقد كان يوسف وأختيه مروة وهند أهم الركائز بالعائلة بالإضافة إلى رحيل العديد من العائلات بحثا عن الرزق .

لأنّ يوسف سيدفن بالقرية لأنّها كانت أمنيته وقد بكته القرية كثيرا احترق قلب مباركة وزينب لأنّهما لم يودعا صديقهما وهو يوارى إلى مثواه الأخير.

خديجة .

ـ تقبل الله هارون .

هارون .

ـ منّا ومنكم صالح الأعمال .

بينما انهمكت خديجة في تعديل مكان نومها ، صفن هارون مع مسبحته وما صدر منه إلّا تلك التنهيدات المتباعدة التي شدّت انتباه خديجة ، وهي تعلم أنّها لم تأت هكذا من الفراغ ، وكذلك لا يمكن أن تكون نتيجة لحسابات الضمير لنفس هارون ، فهو يرى أنّه لا يرتكب أي نوع من الحرام في

حياته ، وبذلك ليس بحاجة لكثرة الاستغفار ، وإنّما من يجلب العار لأهله لأنّه عليه أن يمضي عمره ساجدا وراكعا يطلب مغفرة الله علَه يطهر شرف العائلة ، لا همَ يهمّه إلّا ووجد له حلا .

ـ البرد قارس يا هارون وركبتاك لن يتحملا برد الأرض ، استغفر الله والتحق بفراشك كي تؤويهما من برد الشتاء .

هارون وهو يعدَل نفسه للصلاة برعشات متماسكة يخاطبها

ـ آه يا خديجة أي همّ أصاب العائلة أي همّ .

بينما هارون يعدّل نفسه بمكان نومه تردّ.

ـ لا أظن أن همّ هروب زينب ابنة أخيك وعدم معرفتكم لمكانها ما يهمك لهذا الحد ، فقد سحبت يدك من عارها إلى الأبد.

ـ زينب ما هي إلّا أمر هين يصيب هذه القرية خاصة وأن أمر هروبها مكتوم عليه .

ـ ماذا هناك إذا ؟ !.

ـ جارنا رشيد غاب عن القرية منذ ثلاثة أشهر و لا نعلم له خبرا.

ـ أجل .... حتى عائلته لا تعرف عنه شيئا ، فزوجته تقول أنّها لم تره منذ ذلك الحين ، رغم أنّه طلب منهم أن يدخلوا أكوام الرمل لداخل الحوش وذلك في أخر اتصال له .

ـ ما يحيروني أكثر هو أن أمره ذلك يعني شروعه في إعادة ترميم بيته ، لكن ذلك مستحيل لأنّه لا يمكن أن يتغاض عن ذلك الكمّ الهائل من الديون في رقبته مع أناس غير أمنين .

خديجة : نمّ الآن يا هارون ، والصباح له علومه سأقصد بيته غدا كما أمرت و سترافقني سعدية ، لعلّنا نسمع منهم أخبار طيبة .

ـ إن شاء الله ، مع أن الطريق التي سلكها لن يجني منها الخير ، تصبحين على خير .

بينما أطفأت خديجة نور الغرفة يقي نور غرفة البنات مضاء ، رغم صراخ هارون الدائم على تيار الكهرباء ، لأنّ أمر هروب زينب ابنة العم و اختفاء رشيد موضوع الساعة في

القرية ، وكلّ فرد فيها أطلق العنان للمتحري الذي يكمن داخله من إبراز مواهبه في تحليل الموقف و التدليل بالأدلة .

مباركة .

ـ زينب أطفئي التلفاز سننام غدا يوم طويل .

عائشة .

ـ حتى و إن أطفأت التلفاز لن أقدر على النوم .

مباركة .

ـ تقلبي في فراشك حتى تغلبي النوم .

عائشة .

ـ كيف أنام وأنا منزعجة من مريم .

زينب .

ومن مريم هذه التي أرقت الحسناء في مضجعها .

ـ معي في الصف ، قالت لي أن زينب سيئة لأنها هربت مع رجل ، أردت التشاجر معها لأنّها أهانت العائلة بكلامها لكنّي

رأيت أن الجميع يوافقها ، حتى المعلمة ، أحرجتني بسؤالها عليها .

ـ بأي حق تتدخل المعلمة في ذلك.

ـ ما يحيرني أن بطلة أي فلم تهرب مع البطل ، إن شعرت بالخطر ، فهل فعلت زينب ذات الشيء.

ضحكن عليها وقالت زينب

ـ كبرت حقا يا عائشة ، هل ستفعلينها حين تكبرين .

ـ ذلك يعني أن زينب هربت مع رجل تحبه ، لا بدّ أنّه سليمان بن عمي فقد رأيته معها ذات يوم وهو يعانقها في الطريق.

مباركة وهي لا تكف عن الضحك .

ـ أسكتي لو سمعك أبي سيقتلك سليمان أخوها التوأم ، وقد كفله عمي لأنّه لم يرزق بأولاد .

زينب بعد أن هدأت من الضحك ، واصلت عائشة تحقيقها

ـ أحقا زينب هربت مع رجل ؟.

مباركة معلقة بينما لا تزال منهمكة بهاتفها

ـ أظن أنّ ذلك من فعل سن الأربعين الذي يختفي وراء ثلاثينية الأوراق وهي لم تتزوج ولم يتقدم أحد لخطبتها رغم أنّها بكل أصبع صنعة .

عائشة بعد تأفف .

ـ لم أفهم شيئا ؟

ـ نامي الآن ، غدا ستأتي زهيه زوجة أخيها للمبيت عندنا وستحكي لنا ما حدث.

ـ حسنا مباركة.

رغم أنّ عائشة ادعت عدم قدرتها على النوم ، إلا أنّها كانت أول من اختطفها النوم .

زينب تناولت هاتفها و أخذت تؤنس نفسها باللعبة المفضلة لها "تقطيع الفواكه " ، بينما حيزية التي لم تنبت ببنت شفة أخذت تعيد ما حدث لها اليوم بالثانوية و متاعب التلاميذ لتتوقف بها الذاكرة عند باب الثانوية حين أوقفها صوت يقول " السلام عليكم حيزية ، خذي هذا الكراس ".

وحين نظرت باتجاه الصوت وجدته لزكرياء ، لم تتردد في إمساك الكراس و المضي بخطواتها حتى لا ينتبه لها أحد ، كانت شبه متأكدة من غاية ما حدث ، تدافعت دقات قلبها دفعات نحو كامل جسدها ، و بالكاد ثبتت خطواتها حتى لا يلاحظ أحدا ما يختلج داخلها ، و ما إن وصلت البيت حتى تصفحت الكراس وراء باب البيت الموصد ، لتتوقف حركتها عند ورقة مطوية ، عدّلتها و باشرت في قراءة محتواها .

" السلام عليكم : آنسة حيزية أعلم أن أمي لمحت لوالدتك عن رغبة ارتباطي بك على سنة الله ورسوله ، إلا أنّي أردت أن أبادر أنا الأخر في طرح رغبتي بك ، هذا لتعلمي أنّه خياري لا خيارات والدتي ... وها أنا أعيدها لك : هل تقبلين الزواج بي على سنة الله ورسوله ..:خلف الصفحة ستجدين رقم هاتفي... أنتظر اتصالك " .

طوت الكراس ليتوقف شريط ذكرياتها ، فتتناول هاتفها وهي تحاول ترتيب جرأتها لتحاول الاتصال لكنّها لم تفعل ذلك ، لتأخذها غفلة النوم إلى الصباح الباكر حين رنّ هاتفها معلنا وقت الاستيقاظ لاستقبال يوم جديد ،أطفأته و

عاودت تكوير نفسها داخل غطائها وهي تشجع إخوتها على الاستيقاظ .

لكنّ الكلّ يرفض ذلك ، راغبات في تمديد تلك اللحظات ، لحظات لم تعوضها ساعات النوم الطويل ، لأنّها لحظة تجرأت البشرية جمعاء على التشارك فيها لأنّها تجمعهم جميعا فراخا ناعمة ، لحظتها فقط يفردون أجنحتهم وأرجلهم متباهين بذلك العدّ القليل من الريش على أجسادهم مكابرين في فتح أعينهم لعدم قدرتهم على استقبال نور الشمس ،لأنّه يعطيهم وزنا إضافيا في بصرهم ، وعندما يحدث ذلك ينتبهون لروح البشرية داخلهم المجبرة على مواصلة يومها فهناك التزامات وعلاقات مختلفة ، فتغادر أميرات هارون أفرشتهن لتدب الحركة و الحيوية في البيت ، لغيابها مع حركات خديجة السطحية في ملامسة الأشياء حتى لا تثير انزعاج هارون وهو يخط خطوات يومه ، بعد أن توجه نحو الحمام ، وعاد ليجلس بغرفته حيث وضعت له خديجة إناء كبير للوضوء وسطل الماء الدافئ ، و لأنّه هارون الرشيد لدى زمانه جلس بالأريكة ليمدّ قدماه داخل الإناء ووفق الروتين استمرت خديجة في

سكب الماء حتى انتهى وضوءه ثم ناولته المنشفة وانحنت لأخذ الإناء متوجهة به خارج الغرفة .

أما كمال فليس هناك من هو أهدأ منه لأنّه لا يفكر في مغادرة فراشه إلّا في اللحظات الأخيرة وقد سبقهم بخطوة التقرب لله حين أدى صلاة الفجر و عاد ليحاكي دفئ فراشه ، و ما إن أكملت أميرات هارون تجهيز أنفسهن واتجهن الواحدة تلو الأخرى إلى المطبخ لا تمام متعة الصباح ، في طرح انشغالاتهن ، ليس لأحد بل لجو الصباح الدافئ و الحماس ، لأنّها الوجبة الوحيدة التي يتسنى فيها لعائلة هارون أن تجتمع دون أن تحاول خديجة كبّت أنفاسهم بالصراخ على أي أمر يطرأ في ذهنها مدعية غضبها من هارون ، لكنّه لا يبالي لأنّه تيقن مع مرور الزمن أنّه هناك في شغاف قلبها حب له ، حيث يظهر ذلك جليا في العديد من المواقف .

فبينما تتناول بنات هارون الإفطار ، ينادي خديجة لأنّه لم يجد جوربه فتهرول نحوه لتقدمه له ، و لأنّه الرشيد يطلب منها أن تساعده على انتعاله ، بعدها انصرفت تعدل ملابسه بالخزانة ، بينما يتوجه هو نحو المطبخ ليدخل

الرشيد على بناته ويجدهنّ بالمطبخ الجميل ، منغمسا معهنّ في الجو لتلتحق بعد لحظات خديجة لتمضي الدقائق و يضطر كمال على مغادرة فراشه ،و ما هي إلاّ لحظات حتى يتوجه الجميع إلى أشغاله .

وقبل أن يخرج هارون طلب من خديجة أن تجهز له إفطار عبد الستار حارس البلدية ، و بمودة وعطف و حسرة على حاله ، أعدّت خديجة الإفطار له وهي تدعوا الله أن يهدى أولاده الذين رموه في العراء في مثل هذا السن .

وهو يحثّ خطاه نحو البلدية لا ينفك يتواصل مع المارة يسألهم عن رشيد لكن لا أحد يطمئن البال ، عندما وصل إلى البلدية وجد أن عبد الستار قد استيقظ منذ زمن ، وجعل من ساحة البلدية بقعة مريحة منعشة بالنظافة وبريق الماء على حصى أرضها من بعيد

- صباح الخير.. مرحي للبلدية لأنها آوتك... وخسارة لغيرها ...تبارك الله بابن العشرين .

وهو يقترب منه ، تخلّى عبد الستار عن أنبوب الماء نحو الأرض وتقدم نحو الحنفية لإغلاقها واندفع بجسد مليء

بالحياة الراغبة نحو هارون ليضمه وهو يردد : هرمت يا ولدي هرمت وفق قانون العائلة .

الذين هم في عمر عبد الستار ،لا يؤمنون بالكبر أبدا ، و كأنّ المراهقة غزتهم في هذا السن ، فمنحتهم إكسير الحياة الخالدة في زعمهم بالرغم من أنّه فقد كامل أسنانه و لا يستعمل غير طقم الأسنان خاصته الذي يتخلى عنّه عند النوم ، وذهابه للحمام يعدّ جهدا كبيرا يتحاشاه قدر الإمكان أمام الناس ، لأنّه غالبا ما يعتمد الخلاء لقضاء حاجته فلا يكون مضطر لمسايرة المساحة المحدودة للحمامات ، حتى مساحة ذقنه أصبح يصعب جدا اعتماد أداة الخلاقة لحلقها خوفا من أن تسحب معها الجلد المتبقي على عظمة الوجه ، وجسده هزيل بات من الممكن اعتماده هيكلا للرعب في أفلام الأطفال مع شيء من الإضافات ، ورغم ذلك إلى أن إكسير المراهقة يمنحه دفعا جبارا للحياة .

ـ إنّ الله لا يأخذ إلا ليعطي.

ـ تعال لتشرب الشاي ؟! ...

ـ لا.لا لدي عمل ،أحضرت لك الإفطار فقط .

تناوله عبد الستار مع هارون بعد أن ألح عليه بالبقاء.

ـ أربعين سنة من عمري وأنا أعمل بجد لأجل هذه اللقمة ، لكنّهم وبعد ستين يوما من تقاعدي حرّمت علي في بيتي.

و انصرف هارون بعدها لحاله و لمجرد خروجه من باب البلدية لمح أصغر أولاد عبد الستار ينظر لوالده من بعيد ، اقترب منه وربّت على كتفيه و قال : هي خطوات يا ولدي ... خطوات قد لا تجدها مرة أخرى حين يوارى والدك الثرى.

ـ لا تنظر إلى الأمور من ظاهرها يا عم ... نحن لم نفعل به ذلك هو من ...

قاطعه هارون .

ـ حظنا من الدنيا متر من هذه الأرض ... متر سبقنا إليه يا ابن عبد الستار حيوانات ونباتات ليس صافيا لنا إلّا بأفعالنا تملكه مجبرا يتسع أو يضيق ،الدنيا متاع الغرور .

انصرف هارون بينما ابن عبد الستار بقي ينظر لوالده وقد جلس بكرسي أمام غرفته الصغيرة مباشرا في إكمال إفطاره ، تناول هاتفه واتصل بأحدهم حين تم الرد عليه .

ـ أمي ... أبي أمام ناظري ليس هناك إلا خطوات تفصلني عليه .

بعدها بلحظات أقفل الخط وأعاد الهاتف إلى جيبه مبتسما وهو لا يكفّ عن النظر لوالده وقال : أنت من حفرت حفرتك حين أردت إغاظة أمي بمحاولة زواجك بفتاة عشرينية .

للحظة انتبه لوجه أخيه يغزوا مساحة بصره يقول : لما أتيت إلى هنا .

ـ تعرف أن طريقي للعمل في هذا الاتجاه.

ـ يعقوب أعرف ما حالك ، لكن عليك أن تعرف أن والدك أراد أن يجلب العار لنا لو لم تتصرف والدتك جيدا .

ـ بطردها له من البيت .

بعد أن أمسكه من معصمه وأخذا يمشيان

ـ بل بيتها .

ـ أخذته من والدي حين أجبرته مهددة إياه بفضح سرّ جمعهما قبل ظهور العشرينية كما تقول .

ـ لأجلنا فعلت ذلك .

ـ لأجلنا ونحن نسكن وزوجاتنا بالكراء .

ـ لا يهم كل هذا ، ثم نحن لم نطرده ، فقط سدّت والدتي عليه إمكانية الزواج وبذلك ضيقت الخناق عليه .

ـ بل دمرت حياته ، فالأرض التي بني عليها البيت أخذت بقرض وهو يدفع أقسطاه براتب تقاعده المرهون .

ـ لقد تبرأ منّا ، فماذا تريد غير ذلك وجعل منا أبناء عاقين في نظر الناس .

ـ أولسنا كذلك رمينا والدنا .

ـ خرج بملء إرادته .

ـ لا يهم ، المهم أن أولاده الأبرار يمرّون عليه ولا يلقون له بالا ... تمرّ الأعياد ولا يعيدونه ولا يسألون على حاله .

ـ أمي رغم طلاقاها منه لم تحرمه من غرفته في حوش الدار .

ـ معك حق ، ذلك يكفيه وهو أدنى مرتبة من الحارس في عمارة بالنسبة لأولاده .

ـ الله يهديه .

ـ يهدينا جميعا ... ثم لما أتيت أنت إلى هنا أوليس عليك أن تكون بعيادتك .

ـ لقد طلبت مني والدتك اللحاق بك كي أمنعك من التكلم معه .

ـ حسبي الله ونعم الوكيل على أمي التي تعاقبه بحجة أنّه جعل منّا عاقين ، وعلى أبي الذي جعل من نفسه أضحوكة وهو لا ينفك يصبغ شعره ليخفي الشيب وسبحان الله على نفسي وعليك ، وعلى كل الأحوال اطمئنوا فلن أخرج على قرار العائلة .

ـ حسن هناك سيارتي سأنصرف الآن

انصرف حمزة لسيارته وتوجه يعقوب نحو الثانوية حيث يشتغل مدرسا للرياضيات ، في طريقه التقى بحيزية وهي ترتب خطواتها بانتظام نحو الثانوية ، مرّت عليه في لمح البصر مع إلقائها لتحية السلام بريبة ، رد عليها السلام ثم أطبق على نفسه معتزما في أنّه سيكلمها اليوم على رغبته في الارتباط بها ، لأنهّا سيدة أحلامه وأمله في أن تكون نصفه الثاني منذ دراستها في الجامعة ، لكن التزامه وعدم

قدرته على التواصل مع الفتيات لم يمنحاه القدرة على مفاتحتها في الأمر وهي أخت أعز أصدقائه ، وتمضي ساعات النهار الأولى ، كلّ في أشغاله في حين كانت سعدية قد أتت إلى خديجة ورافقتها إلى بيت رشيد .

وهما جالسين في باحة الحوش مجتمعين مع والدة رشيد التي أتت لبيت ابنها حين خبروها عن غيابه ، وزوجته التي أطبقت على نفسها تعاشر كل صنوف الهمّ والحزن وهنّ يتبادلنّ أطراف الحديث .

سعدية مخاطبة والدة رشيد.

- ريمه لقد رأيت مناما وهو خير إن شاء الله ، وأتيت لرؤيتكم وأحكيه لكم لتبعدوا الشرّ عن بيتكم .

قبل أن تواصل سعدية كلامها نادت ريمة لباية بأنّ تحظر علبة الحناء والصابون والمنديل الأحمر من صندوق حاجاتها .

واصلت سعدية الكلام .

- إن شاء الله ينفرج الهم وينكشف المستور ، لقد رأيت في المنام أن طارقا ملثما بالسواد كان يطرق بابكم ، وقد فتح

الباب له تلقائيا فدخل دون أن ينتبه له أحد ، وكلّما كان يخطوا كانت كتل التراب تلتهم جسده من الأسفل ورويدا رويدا تتضح معالم جسد من العائلة في ساحة البيت إلى أن وصل إلى شجرة الرمان بحوشكم ،هناك التهمه التراب بالكامل عندها ظهرت عنزتي بالمكان .

زوجته بارتباك ملحوظ

ـ وما تفسيرك للحلم يا سعدية ؟.

فتجيب ريمة .

ـ السواد فأل سيئ ولنبشر بالخير ونقول أنه سيفرج .

ـ عنزتي رغم أنّها تعزّ علي ، لكنّي سأمنحها لكم لكي تذبحوها وتوزعوا لحمها على المحتاجين لينفرج الهمّ .

ريمة تسحب أقراطها من أذنيها مناولة إياهم لسعدية .

ـ ما عاذ الله أن أخذ ثمنها .

عندما أحضرت باية الحناء والصابون و المنديل لسعدية غادرت هذه الأخيرة وخديجة البيت ، وفي بيت هارون

جلستا على فناجين القهوة و أخذتا تعيدان تفاصيل الجلسة فبادرت خديجة بالكلام.

ـ إن زوجة رشيد تخفي أمرا جللا ... وأظنّ أنّها تعرف مكانه .

ـ مكانها لتمنيت عدم عودته ، لذلك اكتأب حالها عندما سمعت المنام خوفا من عودته .

ـ ربما ... ـ عدم ظهوره أحسن لهم لأنّها ورغم ذلك الكمّ الهائل من الرجال و النساء الذين أنجبتهم منه ، لم تلق منه غير الهمّ و المهانة وهو رجل سكير لا ينفك يعاشر النساء .

ـ و ريمة والدته رغم أنّها غاضبة عليه لأنّه تجرأ على مدَ يده عليها و ضربها ، إلا أنّها تحمل همّه وتنتظر عودته .

ـ لو كانت امرأة أخرى لما سألت عنه .

ـ إنها الكبد ! ـ اسأليني أنا .

وفي الثانوية كانت استراحة العاشرة قدغزت المكان ، ويعقوب بقاعة الأساتذة يرتّب خطاه ويتردد في داخله خطابه لحيزية ، ولكن كالعادة كلّ ما خطط له واعتزم عليه يتبعثر

حين دق جرس نهاية الاستراحة ، وتوجه كلّ إلى قسمه وهو يلقي درسه قرّر أن يفاتح والدها مباشرة .

بينما في بيت رشيد هناك حالة طوارئ لأن الوالدة اتصلت بكامل أولادها وهي جالسة مع ابنتها الكبرى في غرفة الضيوف تنتظر وصولهم تكلّمت ابنتها.

ـ هي تخاريف سعدية هذه المرة .

ـ منذ متى و أحلامها تخاريف ؟!!

ـ إنها كارثة ستحدث ، و علينا أن نتصرف .

ـ إذا تقصدين أن ...

ـ أجل

ـ قد لا يكون لمنامها أساس هي فقط لم تقتنع حين خبرَناها ، أن إطلاق النار الذي سمعته ليلتها ما هو إلا مفرقعات نارية فاختلقت هذه القصة .

ـ مهما يكن ... علينا أن نتصرف وننقل الجثة ...

قبل أن تكمل كلامها سمعت صراخ ريمة .

ـ يا ولدي . يا ولدي ...

ركضتا نحوها وهي بالحوش ، وحين وصلتا إليها وجدتاها منبطحة ومتكئة على شجرة الرمان ترتعش.

وقد كانت المفاجأة لقد تمكنت ريمة من تفسير المنام على أرض الواقع ، فتنظر لزوجة ابنها وتردد.

ـ قتلته أيتها الفاجرة ... يا أهل القرية النجدة.

ارتمت نحوها تقفل فمها وهي تردد .

ـ اسكتي أمي أرجوك ، فضختنا ، فضحتنا ...

ريمة تحاول الإفلات منها

ـ قتلناه جميعا يا جدتي ـ تصرخ باية ـ

الوالدة .

ـ اسكتي باية لم تقتلو أحد ، قتل نفسه .

ـ أتريدين معرفة تفاصيل كيف قتلناه تعالي معي بالذاكرة إلى لحظة وفاته ...كنّا جالسين حول التلفاز حين صرّح أبي أنّه قرّر تزوجي وتزويج يسرى برجال العصابات ليسدد ديونه .

ـ سيأتي خليفة ومعتز و إمام المنطقة ليعقد قران باية ويسرى عليهما .

ـ ماذا رشيد؟ أنت ترمي ببنتاك في النار .

ـ أنا لا أسألك ، أنا أخبرك .

ـ لن أتزوج يا والدي ـ صرّحت يسرى ـ

ـ أنا كذلك حتى على قطع رقبتي ـ قلت أنا ـ

انقض الوالد علينا و أخذ يضربنا تدخلت الوالد فرماها بعيدا ، في هذه اللحظة دخل أخي باديس و وجده كالحيوان يفترسنا ، فحاول إيقاف ذلك لكنّه لم يقدر على ذلك لأنّه كان يضع البلاط على ذراعه اليمني .

رشيد وهو لا يتوقف على ضربنا.

ـ منذ متى أصبح للماعز ألسنة يتكلمون بها... أبيعكم الآن قبل أن تكبرا عندي فلا همّ لي بكما أن تكونا لا تريدان ذلك.

كانت الوالد ة تترجّاه بأن يتوقف وهي تهدده .

ـ توقف أيها الحقير إنهما بنتيك ، ألا يكفي أنك أخذت ما أملك من ذهب و ما تملكه والدتك ، وبعت ابنتك الكبرى لصديق والدك ...توقف قلت لك توقف و إلّا.

نظر لها فلمح المسدس بيدها ضحك مطولا ثم قال.

ـ حيوانة مثلك تحمل مسدسا أطلقي إن قدرت .

مواصلا ضرب بناته .

فجأة توقف على فعل ذلك لأن الحيوانة ـ كما نعتها ـ أجادت الضغط على الزناد تردد أسمي بنتيها ، نظر إليها لكنّه خرس عن الكلام واقعا ببطء على الأرض ، ولشدّة ذهولها على ما أقدمت عليه سقط المسدس من يدها جاثية على قدميها وهي تردد .

ـ متّ أيها الحيوان دع بناتي لقد قتلتك ... لقد قتلتك .

توجهت بناتها نحوها أما باديس فقد انحنى على المسدس وحمله .

ـ علينا دفنه يا إخوتي ... أسرعن .

فقلت له ولازلت أمسح أثار الدم على وجهي للجروح التي سببها .

ـ تفقدَه لعلَه حي فنسعفه .

بدأ باديس يقترب منه لكن الوالدة منعته وقالت .

ـ سأدفنه بيدي قبل أن يدفننا أحياء ... سأدفن القذارة بيدي .

ـ لعلَه على قيد الحياة يأمي ، دعينا نسعفه ـ كانت يسرى تردد ـ

اقتربت الوالدة منه وتحسست نبضه وقالت .

ـ يسرى لقد مات والدكم ...لقد قتلته أمكم .

باديس

ـ لنسرع في إخفاء جثته قبل أن يصل الجيران لأنهم حتما قد سمعوا الطلق الناري .

خارت قوى الوالدة و أخذت تقول : والدتهم تنجبهم و والدهم يأكلهم ـ العديد من المرات ـ .

قام باديس و يسرى و باية بجرَه إلى حوش الدار مباشرين في حفر قبر له عند شجرة الرمان .

وعند ذلك طرق الباب تجمدت نبضات الجميع ، لكن باديس هدأ من روعه متوجها للباب ليفتحه ، وقد كان الطارق مخلوف وزكرياء يسألان إن كان هناك خطب ما .

كانت إجابة باديس أن أخته يسرى اشترت المفرقعات من السوق اليوم ، وأرادت إخافة والدتها التي منعتها من استعمالها طول النهار وقد تشجعت لوجوده و قامت بذلك .

مخلوف .

ـ أين والدك ؟ ...أليس الطلق الناري من مسدسه ؟...أو أن أحد أتى ليهدده.

ضحك باديس بمكر وردّ.

ـ ليس هناك أي فيلم هندي هنا... ثم أن والدي لم يأت اليوم كعادة ... وإن أردتم الدخول تفضلوا ليطمأن بالكم .

زكرياء حين همّ مخلوف بالدخول.

ـ المهم أن تكونوا بخير .

ـ شكرا على حيرتكم واهتمامكم .

وما إن أغلق باديس الباب حتى خارت قواه بالكامل وسقط متربعا على الباب إلى الصباح الموالي.

يا جدتي حيث كان علينا أن نخفي الآثار تماما ، قمنا بتنظيف البيت ، وطلب باديس من صديقه زكرياء أن يدخل و إياه عربات الرمل على أساس أن والدي سيأتي عشيتها و سنباشر في ترميمات البيت ، هكذا جدتي فرشنا هذا .

ـ شلّت أيديكم هذا والدكم ، والدكم يا بنات .

الوالدة بوجع .

ـ لا تكذب على نفسك يا أمي لم يكن ابنا بارا ولا زوجا محترما ولا أبا محبا يستحق الموت ، رغم أنّي لم أقصد قتله صدقيني.

أخذت ريمة تدفع الوالدة عنها بالضرب وهي تقول.

ـ كاذبة ...لعنك الله لطالما ذكرت رغبتك في موته .

دخل علاوة الدار وهو ينادي والدته ريمة ، عندما سمعنه ذهلن ولم يعرفن ما يفعلنه ، فأخذت ريمة تحاول إخفاء ما

ظهر من يد ابنها المدفون ، لكن علاوة قد وصل نحوها وهو يردد

ـ ماذا هناك يا أمي .

ـ لا شيئ يا ولدي لا شيء .

ـ حسن يا أمي أتيت لأخذك إلى البيت لا حاجة لك للبقاء هنا .

ـ حسنا لندخل إلى الداخل .

دخلت النساء المرتبكات وبقي علاوة وراءهم وهو يحاول النظر لمكان نبش والدته بالتراب ، وما رآه دفعه لجعلهن يطمأنن داخل البيت ، في حين خرج للشارع وتناول هاتفه ليشكل رقما متصلا به.

بعد أن رد المتصل عليه

ـ السلام عليكم شرطة المدينة...إني أبلغ على جريمة .

ثم قدم لهم العنوان ودخل البيت ليجلس مع والدته في صمت ، وما إن حظرت ريمة نفسها حتى سمعت أصوات سيارات الشرطة تقف عند باب الدار نظرت النساء لأنفسهن دون حراك .

قطع علاوة سكوتهن .

ـ أنا من بلغت .

نظرنّ له لكنّ نظره لم يحد عن والدته .

– سامحني أمي لكنّه أخي وقبل ذلك ابنك

ـ إنّه العار يا ولدي كيف سنواجه الناس بعدها . .. رشيد مات .

ـ أعرف أنك لم تفعل ذلك ، وأن زوجة أخي من قامت بذلك لأني كنت أشك في الأمر ، لكن أن تكون نهايته على يد أولده والله لم يأت ذلك في البال .

إنّه الصراع الدائم لأجل البقاء المعتمد على غريزة الإنسان ، خاصة إذا تعلّق الأمر بالغريزة الدفاعية لدى الأم التي تدافع على أولادها بكل الطرق ، غريزة تمنحها قوة مبهرة لا يمكن لقوى الكون الوقوف في وجهها ، و زوجة رشيد امتلكتها لكنّها لم تفكر في استعمالها يوما ، وهي تقضي على تلك السنين من عمرها تحت قدمي رشيد حتى أنها صمتت حين زوجت ابنتها البكر غصبا ... لكنها لم تقدر هذه المرة على فعل ذلك ،لأن الوحش ر شيد انقض على بناتها

ليس لعار أقدما عليه بل لأنهّما طفلتين أرادتا أن يكون لهما خيارات في حياتهما ، وهي مع مرور كل ذلك الوقت لم تجد تفسيرا لما أقدمت عليه ، وهل يا ترى هي من قتلت رشيد أم القدر أم أخطائه التي بلغت حد الزّبى ؟.

دخلت الشرطة البيت وقاموا بالحفر حيث وجههم علاوة لإخراج الجثة المتعنة ... تغزوا هستريا البكاء بنات رشيد وهن يقتدن رفقة أخيهم باديس ووالدتهم للسجن كأنّهم تذكروا أن الذي قتلوه هو والدهم .

فجعت القرية بمقتل رشيد و بدل التفكير في أمر غيابه بدأت التساؤلات حول ملابسات مقتله ومن أطلق النار عليه وما الأسباب .

بعد اعترافات الوالدة و أولادها أخذت التحريات في كشف الملابسات حيث أن التشريح التي تعرضت لها الجثة بين أن المغدور به لم يمت في لحظتها ، بل بعد 12 ساعة وهو يصارع الموت تحت التراب .

المتهم الرئيسي هو الوالدة لكنّها لم تعلم أن الحكم الذي ستصدره المحكمة سيكون ضد ولدها باديس ، لأنّه أمسك

سلاح الجريمة بعد وقوعها ، و تمّ إثبات ذلك باعترافه الحرفي متحملا بذلك مقتل والده ، لأنّ أمه تعذبت في حياتها ولا يجوز في معتقد تفكريه أن تقضي ما تبقى من العمر في السجن ، وبذلك يدخل السجن ليقضي مدة خمسة وعشرين سنة من عمره القادم هناك .

انطوت حادثة رشيد و عادت القرية لأيام الدواليك خاصتها ، وزينب إلى حدّ الساعة ضائعة ، لكن الذي انتشر على لسان زهية زوجة أخيها أنها هربت مع رجل خارج المدينة ، و ذلك حين رفضت عائلتها تزويجها خارج أصول العائلة وأنّها لا تنفك تتصل بهم وتطمئنهم على الحال .

إلا أنّ اتصال العم بأخيه هارون جعل القصة تنحوا منحى أخر فقد طلب منه المجيء إلى البيت لأنّ زينب ستعيد الاتصال ، وطلبت أن يجتمع الجميع خاصة عمّها هارون لأنّه كبير العائلة ،غير أن هارون رفض الذهاب لأنّه سحب يده من القصة منذ أن بدأ أخاه يخفي عليه الكثير من الأمور .

حدود الساعة العاشرة كان الوقت حينها ، بينما غالب الأسرة مجتمعة حول الهاتف منتظرين اتصال زينب ، و ما إن اتصلت حتى تناول أخاها الكبير الهاتف .

- زينب أيتها العاهرة أي طريق تسلكين والله سأقتلك أيتها الفاجرة وأقضي عليك ...

لكنّه خرس عندما أجابه صوت رجالي قائلا : أقفل فمك أيها اللعين أنا و زينب أمام مخفر الشرطة ، أعط الهاتف

لوالدتك و افتح مكبر الصوت لتسمعوا كلامي جيدا .

أمسكت الوالدة الهاتف .

- اسمعي يا سيدتي شؤون العائلة لا دخل لي بها ، لكنّ أظن أنّه يكفيكم تمثيلا في عدم معرفتكم لسر هروب زينب ، أنتم جميعا تعلمون أنها طاهرة وأن فكرة الهروب لم تراودها يوما ، و أنّها لم تهرب لأجل أحد بل هربت لدرء فضيحة سيدة العائلة ... ثم أنت أيّها الأب المغرور لا تقوى بعكازك على الأرض وأنت تطرقها تاركا ابنتك تتعرض لذلك ...المهم أنا أمام مقرّ الشرطة تعالوا لأخذ ابنتكم ، لكن لن

تأخذوها إلّا بعد إمضاء على تعهد في عدم أذيتها خاصة أنت أيها المدعى المتدين .

أقفل الخط .

نظرت لهم الأم .

ـ جنت الفتاة حقا .

يحي بصوت مرتفع.

ـ يكفيك أيتها الساقطة كذبا كلّنا نعرف أنك أنت القذرة لا ابنتي زينب ، لو لا الفضيحة لقتلتك ، ثم أنت يا يحي اذهب و والدتك المصون أيها النقي من الخطايا واحضر أختك يكفيها عذابا عند الأغراب.

ـ سأذهب و أنحرها عند مقر الشرطة .

ـ إن تجرأت على فعل ذلك سأقتلك قبل أن تعتقلك الشرطة .

ذهب يحي و والدته لجلب زينب أما أخواتها البنات و أخاها الزبير بقوا في البيت .

الزبير : أبي لما لا تحرك ساكنا .

ـ بماذا ... أتحرك بهذين القدمين اللتين بالكاد تحملانني منذ عشرين سنة .

ـ كان عليك أن تطلقها حينها .

ـ أين أذهب و البيت الذي أسكنه تنازلت عليه لها.

لبني متدخلة .

ـ لكنها ارتكبت الزنا .

ـ لم تخني أنا لأنتفض ، بل خانت ماضيكم وحاضركم ومستقبلكم ذلّ والدكم و السلام خذوني إلى غرفتي .

الخيانة والعار ، هذا ما تعرضت له عائلة جمال وهي خيانة ليست من أحد الفروع ليقدموا في حقه حكم الرجم فيكونوا رمز لتطهير الشرف ، بل هي في أصل العائلة ذلك الأصل الذي حمل العائلة لأكثر من خمسة و ثلاثين سنة ، فكيف لهم أن يعترفوا بخطيئتها فيشك في نسب كل العائلة ، فينبذون جميعهم وهو في حكم أعراف المجتمع لا أحكام الدين ، رغم أن الأصل أصبح قذرا إلا أنه عليهم تحمله رغم السموم التي تنشرها في فروعها ، إنّها الوالدة التي أنجبت وربّت الأولاد و أحسنت تربيتهم و زوجتهم أحسن الزيجات ،

إلا زينب البنت الكبرى التي كانت لا تأبه للزواج لأنّها كانت تحب خدمة والدتها ، والدتهم التي أقامت علاقة حب مع مقاول البناء الذي كان يبني لهم بيتهم الجديد في حوش الدار ، أثمرت تلك العائلة هدى التي هي في عمر الثلاث سنوات لا تحمل شيئا من الجينات الوراثية للعائلة ، لأنّها تحمل ملامح العرق القبائلي ، شديدة البياض وذات شعر أسود حريري وعيون سوداء ناصعة ، هدى التي هي ابنة جمال كما يعرف كل الناس ستضطر أن تمضي في طي صفحاتها في بيت لن يراها إلا ثمرة الخيانة .

لم تعلم القرية أن زينب أتت لبيت والدها لأنّه أخذها بعد أيام إلى عمتها بمدينة أخرى خوفا من بطش أخيها ، وقلبه يحترق على نور حياته وما حدث لها ، لكن الذي لم يكن يعلمه أن زوجته حرضّت أخته لتزويجها هناك تحت أي ظرف وقد حاولت فعل ذلك حقا ، حين خططت لتزويجها بشيخ كبير سكير أخذ من نساء الناس متعة الزواج و يطلق كيفما أراد .

لم تجد حلا غير الهرب اتصلت بصديقها الذي ساعدها من قبل ، وكان لها أن تنزل إلى العاصمة و هناك تلتقي به ،

وهي في حافلة السفر أخذتها غفلة نوم و نسيت الاتصال بموسى ، نزل الركاب ولم ينتبه السائق لها إلا بعد أن خرج من المحطة ، عند ذلك وجدت نفسها مضطرة مسايرة نظراته الراغبة ، فتماطلت و إياه في الكلام المعسول ...علّها تجد مخرجا ، خاصة بعد أن حاولت الاتصال بموسى لكنّه كان خارج التغطية ، وهو يحاول مداعبتها واستمالة جسدها ، أقنعته بأنها تريد أن تنام قليلا لترتاح ، أحضر لها الغطاء وهي تلف نفسها بالغطاء جلس بجانبها محاولا تضيق الخناق عليها ولفّها بين ذراعيه ، لكنها تظاهرت أنها تغط في نوم عميق لآفة نفسها بنفسها .

مضت الساعات وهي تحاول إيجاد مخرج في ذهنها خاصة و أنه يحاصرها و منتظر لحظة استيقاظها.

أتى موعد رحلته الجديدة فنزع الغطاء على وجهها و أخذ يلمس خدها و شفتها.

- هيا أيتها الجميلة استيقظي دعين أتمتع قليلا بجمالك ، فموعد عملي قد حان، لم تجد حلا إلا أنّها قررت مسايرته مجددا.

ـ لا بأس أريد كوب ماء لأشربه حتى لا أعرضك لرائحة فمي ذهب السائق وأحضر قارورة الماء .

وقفت زينب من الكرسي فسألها لما وقفت فوضحت له بأنّها تريد أن تجد الحرية أكبر بمجرد أن حاول تقبيلها صفعته ، فلم يتراجع بل جذبها بقوة من ذراعها محاولا النيل منها وحين تمكنّ من تقبيلها مدّ يده نحو أزرار قميصها مباشرا في فتحهم.

لكن الله مع الأبرياء لأنّ موسى أطبق عليه باللكمات حتى زينب لم تسلم منه ومن صفعاته .

ـ أيتها الفاجرة ما تحسبين نفسك فاعلة.

لم ترد عليه لكنّه واصل ضرب السائق وهو يردد بأنّه سيبلغ إدارة المحطة لكنها أمسكت بيده.

ـ دعك منه هو من الحيوانات التي عانت النساء منها .

خرجا من الحافلة متوجها بها نحو مطعم قريب من المكان لأجل تناول إفطارها والتحدث ، وحين أخبرته ما حدث صفن فيها مليا.

ـ صدقا ما الذي كنت مقدمة عليه.

ـ تعبت من هذه الحياة ولحظتها أغمضت عيني وقلت فليحدث ما حدث .

ـ المهم هناك صديق لي أخبرني أن هناك سيدة بمدينة بسكرة تعمل بالتنظيف بإحدى المستشفيات ، هناك يمكنها استضافتك سنذهب إليها ونرى بعدها ما نفعل .

ـ لقد حمّلتك همي و أنت غريب ولا أملك غير جسدي لأجازيك به .

ـ اخرسي يا حمقاء ، أنت عفيفة طاهرة وما أنت فيه هو ابتلاء من الله وسيفرج همومك .

ـ متى نغادر إلى بسكرة ؟

ـ لن نذهب بالحافلة سنذهب بسيارتي وسأمنحك أجمل رحلة في حياتك ، بينما انغمست زينب في سفرتها تلك التي جعلها موسى لأيام عبر مختلف المناطق التي يعرفها .

حدثت انتكاسة عاطفية ليعقوب حين تجرأ أخيرا على طلب يد حيزية من والدها ، وكان رده دون تفكير بأن زكرياء قد

تقدم قبله وبعد أيام ستكون خطبتها ، و في نفسه استبعاد أخر وهو أنّه لن يعطي ابنته لمن هو مغضوب الوالد ، رغم أن عبد الستار تدخل دون دراية ابنه لكنّه لم يفلح في ذلك لينطوي يعقوب مع عاطفته و أحلامه المنكسرة .

بينما عائلة جمال أخفت أمر هروب زينب من عند عمتها كان هارون قد حدد أن خطبة حيزية بزكرياء ستكون بعد أسبوع لتبدأ التحضيرات لذلك .

قدمت نهاية الأسبوع وتمّت خطبة حيزية بزكرياء رسميا ، وتمّ تقييد الصائفة موعدا لزفافهما بينما لا تزال الحياة تتأمل وقع صراعات زينب التي تركها موسى ببسكرة عندما أمّن على حالتها بالعمل والسكن وعاد لحياته لكنّه لم يقطع اتصاله بها .

إلا أنّ السيدة التي آوتها لم يكن في نيتها أن الأمر لله بل كانت تخطط لما يخدمها .

زينب اكتشفت أن بيتها اشتراه لها عشيقها ولمزيد من الربح أرادت أن تجعل من زينب شريكة لها في كل أمر ، وحين

عجزت عن إقناعها أحضرت رجلا ليراودها لكنّه فشل ،عندها طلبت منها مغادرة البيت .

جمعت زينب حاجاتها ومضت في طرقات المدينة ليس لها ملجأ بعد الله إلا موسى ، لكنّها هذه المرة لم ترد أن تثقل عليه فلم تخبره ، وحين أوصلتها قدماها إلى حديقة عامة أوت إليها واستلقت على كرسيها لترتاح ،محاولة النوم لأن الليل أسدل سدوله، و لأنّها اختارت الخوف و البرد وحفظ عفّتها على المال و العزّ ،أرسل الله لها شخصا كان تائها في تلك الحديقة .

حين لمحها اقترب منها وحاول ايقاضها ، حين انتبهت له شعرت بالهلع حاول تهدئتها لكنّها لم تطمئن رغم أنه ألحّ عليها و أخبرها بأنّه ابن عائلة و الأفضل أن تذهب معه لبيته خيرا لها من العراء ، لم توافقه إلى أن اتصل بأخته وطلب منها المجيء مع أخيه إلى الحديقة ، حين أتت أختها أكدت لها بقيمة الأمان الذي يقدمه لها أخوها فرافقتهم .

مضت عندهم الأيام وتعرّفوا على قصتها وليطمئن بالهم ذهب الرجل الذي وجدها إلى قريتها وتقصى عن أخبارها

فوجد قمة الصدق في كلامها ، فقرر سترها بالزواج بها ، وافقت زينب على الزواج بعد أن علمت أن محمد الذي ستتزوجه أب لطفلين وقد توفيت زوجته في محاولة الاعتداء عليها وهي عائدة من العمل ، لذلك شعر بإحساس زينب وما يمكن أن تعانيه ، وقد اشترطت زينب أن يذهب لأهلها رسميا ويطلبها كأي فتاة تنتمي للعائلة .

لتشاء الأقدار أن يتم الاحتفال بزينب بينما كانت القرية تنتظر موعد زفاف حيزية الذي بقي على موعده ستين يوما و بذلك زفّت زينب معززة مكرمة من بيت والدها إلى بيت زوجها ، و الأمر الظالم الوحيد الذي قامت به هو أنّها لم تتصل بموسى وتخبره بزواجها .

رغم الشحنات المتصارعة التي لا تنفك تهدأ إلا وقد أصلبت هدوء وسكينة بقعة الدواليك ، إلا أنّها لا تغير شيئا من سيرورة الأيام فيها ببساطتها و تقبّل الكلّ للكلّ ، تقبلّ غريب في مضمونه مقبول ظاهره ، لأنّ كلّ منطوق للفكر أو

المشاعر فيه يعطي تعريفا صادقا لكلّ مفهوم ، سواء تعلّق الأمر بمفاهيم الحب والخير وروابط الدم و الإخاء ، حين يقبلون على بعضهم ولا يتوان أحد في أن يحتل الصدارة في فعل الخير ونشر القيم المتعلقة بتلك المفاهيم ، وفي الآن نفسه لا يمكن له أن يفشل في نشر ما تعلق بالشر والأذية فلا يتوان لسان في تفّعيل كلّ ما تعلّق بالنميمة و الافتراء حتى ولو تعلق الأمر بشرف العائلات ، فلا يجدون حرجا في نشر زلات القذف لأجل المساس بكل بساطة بالعرض .

تمضي بقعة الدواليك في حياتها الهادئة غافرة وساخطة لكنّها أبدا لا تتنصل من أحد ، ويظل كائنا في بيوتها .

لظروف قانونية معينة نشأت قي ظل هفوات القانون ، تمت تبرئة زوجة رشيد و بنتيها ليتحمل ابنها عواقب جريمة لم يحمل سلاحها ، فقط برّا بوالدته وخجلا من ألسنة الناس في أن يقولوا شبل رشيد خرج يترنح في أرجاء قريته تاركا والدته وراء القضبان .

عادت نساء رشيد إلى بيتهن ، ولأنه بيت في بقعة الدواليك ، عدن لتتألق قلوبهن من جديد مع الجيران و المعارف

لأنهن كنّ ضحية جبروت رشيد ، ولا ربما حسب تعريف بعض الألسنة إرهابيات يملكن قلة الحياء ، وأيا كان السبب تمكنوا من العيش في أحضان غفران جدّتهم و أعمامهم حبا و خجلا من كلام الناس حتى أن البيوت فتحت لهن . لتتمكن بنات رشيد من الزواج وبناء العائلات الخاصة بهنّ .

بعد زواج زينب وطي صفحة هربها ، تزوج زكرياء و حيزية . لتمضي الشهور المتتالية و تجلس الاثنتين في بيت هارون لكن بوضعية مختلفة ، فكلّ واحدة منهما تحمل في حجر

جلستها طفلا ، مجتمعين مع باقي العائلة في أخر الأيام التي تفصل الجميع على زفاف عمر.

عمر الذي تجاوز قصة حبّه الأولى لجهيدة في صباحها الأول ببيت زوجها ، وتمكّن من رسم معالم حياته البسيطة ، التي كان يومها ينتهي بعودته إلى المنزل وكميات الإسمنت و الجير احتلت بدلة عمله حتما ، محاولا التخلص منها بمكوثه تحت مرش الحمام الذي صممه منذ أيام عمله الأولى ، لأنّه واع لأزمة الاستحمام التي كانت تصيبه منذ صغره وذلك عندما يصيبه التعب في كامل مفاصله حين يأتي موعده .

وليكتمل نصف دينه وتستقر حياته اختار عفاف زوجة له بعد أن تمكنت من دخول قلبه حبيبة توجت شقيقة الروح وهي غادية ورائحة إلى الثانوية ملتحقة بمقاعد الدراسة ، لأنّه وبعد أن أخذت حظها من الدراسة متعثرة في العديد من المرات في السنة النهائية ، ركنت إلى أحلامها المشتركة وعمر في تأسيس بيت يجمعهما و الذي طبعا لن يتعدى غرفة هي من ستنفخ الروح فيها ، بيت مشترك الإيقاع للضروريات الأخرى رفقة أفراد عائلة هارون ، وذلك بعد أن

شاءت الظروف أن لا يجتمع باختياره الثاني وهي ثريا والتي اضطرت للسفر مع والدتها المريضة إلى فرنسا للعلاج.

عفاف هي العروس التي يحضَر لها الجميع في بيت هارون ، ومن إحدى حسنات حظّها أن العائلة لم تجد سبب في رفضها لأنّهم لم يتركو لأنفسهم فرصة في البحث عن عيب ما فيها أو بعائلتها ، لأن الخطوة التي أقدم عليها عمر كانت قد أتت بعد أن تعرفت خديجة على عفاف وهي رفيقة ابنتها زينب ، فسكنت قلبها لبراءتها وأخلاقها الطيبة ، لأنّها لطالما وقفت مع زينب وتقاسمت معها مختلف الظروف ، و لأنّها سكنت قلب خديجة لم تجد ضررا في أن تصبح محبوبة الجميع ، ولمّا لا ربما أن خديجة تمنتها في سريرتها عروسا لعمر لكنّها لم تعترف بذلك ، وحين اعترف لهم عمر برغبته في الارتباط بعفاف وجدت نفسها بين أحضان رغبة مكبوتة تتحقق .

لأنّ خديجة من الأمهات اللواتي يجدن قراءة ما بداخل أولادهم ، رغم فشلها أحيانا في التواصل معهم ، اعتمدت التريث لأنّها تعرف مقدار الحب الذي حمله عمر لجهيدة ، وكم لزمه من الوقت كي يتخطى ألم الهجران ، وكذلك جميلة

قربان أنابيب الغاز ، قدمت كذلك بطريقة سريعة دون تريث لأنهّ و حسب رأي خديجة لو أنها لم تذهب وزوجها إلى بيتهما من أول ليلة وقضت بضعة أيام أو شهور عند والديه حتى يتأكدوا من صحة أنابيب الغاز ، لكانت جميلة الآن مع أولادها وسط الجميع ، لكنّها أقدار فهي تحب أو أجبرت نفسها على ذلك بأن تتريث و تمنح كل أمر حقه ، و جهادها في إبعاد الموت على أولادها جعلها ترفض تماما أن يصل هارون بيته بأنابيب غاز المدينة . المهم تضمن ابتعاد هذا الطريق التي تجرأ يوما و فكّر في أخذ أحد أبنائها .

الكلّ سعيد بذلك صدقا لأن منزل هارون يستّعد للاستقبال إحدى أميرات بقعة الدواليك ، وهي عفاف التي أخذت دون أن تدري العيون الزرقاء من سيد البيت هارون ، والشعر الأسود الطويل حدّ الخصر من خديجة ، لكنّها تقاسمت الجميع السحنة البيضاء التي تحوي جسدها ، مختلفة عنهم كليا في حجم جسدها ، وهي ممتلئة الجسد بشكل مقبول ، أسر قلب عمر وهو فرد من أفراد العائلات العظيمة المفتقرة لكتل الشحم .

خديجة .

ـ عائشة اذهبي إلى جدتك سعدية و خبريها أن غرفة العريس جاهزة ولم يبق إلا مراسم البخور خاصتها .

ـ ولكن أمي هذه عادة سيئة لما تصرين عليها .

ـ فتواك طبقيها في بيت زوجك وليس عندي أيها الجيل المثقف .

ـ البخور يا زينب يطرد الجن غير المرغوب فيه لتمكن الجن العامر من تقبل كل فرد جديد يدخل البيت .

ـ ماهو الجن الدخيل و ما هو الجن العامر يا خالة يا صاحبة الأساطير الغريبة؟ .

ـ أشرقت الشمس على الغروب وهو موعدهم الآن في الحركة .

ـ أطفئوا الأغاني و لتستعدوا لصلاة المغرب .

نظرت مباركة إلى المنزل متسائلة ، جنّ بكل أنواعه في البيت أين هو المكان الذي سيسعهم مع هذا العدد الهائل من نسل هارون ، على العموم يبدوا أن هذه الليلة هي إحدى ليالي الاجتماع مع إحدى أبطال حكايات الخالة.

عادت عائشة مع سعدية التي أخبرتهم أن البخور ستعده فجر الغد ليكون مباركا أكثر .

أديت فريضة المغرب ، وأعّد العشاء لأفراد العائلة لأن الزوار قد انصرفوا إلى بيوتهم قبل المغرب لأن هذه الأيام ما هي إلا للأنس والدردشة ، و الغد هو الخميس وعندما ستدخل عفاف بيت هارون لتمكث ساعاتها الطوال وهي تصدَر من حين لأخر بنفسها مختلف الأثواب التقليدية التي قد أحضرتها من بيت والدها ، وبعدها ليلا ستقع راغبة في طقوس ليلة الدخلة لتكمل حياتها و عمر بحلوها ومرها .

اجتمعت كل العائلة فردا فردا قريبا أو قادما من البعيد على أطباق الشربة والبكبوكة و خبز الكسرة المخمرة و قارورات المشروبات الغازية ، فأي سمفونية رائعة شكلت بإيقاعات الملاعق وقارورات المشروب التي ترفع من حين إلى للأخر من على الطاولات متناغمة تماما مع مختلف الأكلات ، و التي لم يكن يصغي لها أحد رغم أنّها تخترق الأذان ، ففي مثل هذه المناسبات يتساوى الجميع كبيرا و صغيرا في مقدار ما يحصل عليه من الأكل ، حيث ينعدم

التأفف وعدم الرضا المعتاد على نوع من الأكل ، لأنّها جمعة للأكل بكل حب وأخوة بغض النظر على الذي يؤكل .

انتهت جمعة الأكل وانصرف الرجال إلى الجامع لأداء صلاة العشاء ، بينما أكملت النساء عملهن من غسل و تنظيف وطرح أفرشة النوم على مساحة غرف البيت ليجتمع الجميع في خلقة حول الخالة ، التي سيكون عليها أن تحكي حكايتها و طبعا ستكون عن الجن العامر و الجن الدخيل وهم مجتمعين على فناجين الشاي وحبات الكاكاو التي أحضرها عمر، بعد أن أخذ منها نصيبا إلى الرجال الذين تقرر مبيتهم في بيت زكرياء .

عائشة رغم السنين التي تمضي إلاّ أنها لا تفكر أبدا في التخلي عن فخذ خالتها في جعلها وسادة لها لتبدأ الحكاية .

الجن لطالما ارتبط بسيدنا سليمان لأنّه احتكم على السيطرة عليهم بخاتمه الذي يعرف بخاتم سليمان ،لأن الجن من عباد الله وهم مخلوقات غير مرئية لنا ، لأن لهم سرعة البرق وكما يوجد في البشر الخير و الشرير كذلك الحال عندهم .

و حياتهم مثلنا يتزوجون وينجبون وحياتهم متواصلة وفي كلّ بيت هناك جن عامر وهو الذي يسكن كل بيت ونادرا ما يمكن الانتباه له ، وأجدادنا لطالما ارتبطت حياتهم في العديد من المواقف بهم .

تبدأ حكاية مريم ،.

حكيت جدتي عن جنية ارتبطت بأخيها على مرّ حياته وهي تقول:

كانت والدتها قرمية شيخة إحدى القرى وقد أشرفت على ولادة الكثير من أهل القرية وهي في إحدى مهامها الكثيرة اعترضت طريقها امرأة عجوز في أبهى حلتها القبائلية بادرتها العجوز بالكلام.

ـ مرحبا يا قرمية .

ـ مرحبا ـ هل نعرف بعضنا ؟.

ـ قابلة القرية لا تحتاج لمعرفة عند الناس لكي تساعد روحا في الخروج إلى الحياة .

ـ سامحيني لكنّي لم أتعود على رؤيتك هنا .

ـ ما أدراك ؟

ـ ملابسك ...ملابس كأنك من بلاد القبائل

ـ وهل في ذلك في حرج ؟

ـ أهلا بالقبائل كلّها ،لكن قريتنا صغيرة و أنا أعرف كل أفرادها .

ـ صدقت لست من القرية لكن لنا حاجة بك ، لأن ابنتي ألمّ بها ألم المخاض ولم أجد من يساعدها .

ـ لبيتك ...توكلنا على الله ... أين بيتكم

ـ لا أظن أن لك مشكلة في مرافقتي

ـ ليس هناك مشكلة ... هيا لنسرع حتى لا تتعرض ابنتك للأذى .

وهكذا ترافقت قرمية مع العجوز للأجل الوصول إلى بيتها ، لكنّ الأمر كان غريبا للغاية ، فالمسافة كانت تطول وتبعدها عن القرية أكثر وتوصلها إلى أماكن لم تعرفها يوما ، وكلّما تسأل تخبرها العجوز أنهما على وشك الوصول .

بعد مدّة توقفت العجوز ونظرت لقرمية مدّة من الزمن .

ـ لقد وصلنا .

ـ وأين منزلكم ؟

ـ أنا مضطرة لأن أعصب عينيك .

ـ لما ؟

لم تجبها العجوز إلّا بعصب عينيها ، وفي مدة لم تتجاوز الدقيقة وبدون أن تخطوا قرمية أي خطوة ، أزالت العجوز العصاب وتركت قرمية تتأمل ما حولها وكانت صاعقة الدهشة قوية ، فقد وجدت نفسها في غرفة مكتظة بالنساء ينظرن لها بريبة وهي تتمعن فيهنّ ، شدَ انتباهها طبيعة أعينهن لأنّها أعين كبيرة مكتحلة بالإثمد ذات دمن خضراء واسعة جدا ، والمرعب في الأمر أنها تشترك مع القطط في الخط الأسود وسطها، وبدهشتها استدارت للمرأة فوجدتها كذلك فسكتت دون حركة .

ـ نحن صنف أخر من أهل الأرض ولا ننوي أذيتك .

ـ لما أحضرتني إذا ؟

ـ مخاض ابنتي صعب ولم تستطع قابلتنا مساعدتها . ..ولم أجد في طريقي غيرك وأنت هي القابلة الوحيدة التي سمعت عنها أنه لم تمت على يدها أي امرأة ومهما كان مخاضها صعبا.

ـ لا أستطيع ... أعيديني إلى قريتي .

ـ ليس لك مفر.... عملك إنساني بالدرجة الأولى .

ـ وهل أنتم بشر ؟.

شعرت قرمية أن الجميع اشمأز من كلامها فحاولت تصحيحه .

ـ أقصد لم يسبق أن قابلت جنية تلد ولا أدري طبيعتكم .

ـ لا تختلف عنكم إلاّ في كوننا غير مرئيين.

بدأت المرأة في المخاض تتألم وتصرخ ، فما كان على قرمية وهي تنظر للجميع الذي يرّجوها مجبرا إياها على خوض الأمر ، إلّا أنّها توجهت إلى المرأة وجثت على ركبتيها مقابلة إياها ، وحين استعادت شجاعتها طلبت إحضار الماء الساخن لكنّهم خبروها أنّهم لا يحتاجون إلى ذلك ، باشرت قرمية في مساعدة المرأة على الإنجاب ولم تدري كم من الوقت مضى

، لكنّها شعرت بعظمة ما تفعل عندما حملت طفلة المرأة بين يديها وهي تبارك خليقتها الجميلة لتلفّها في قطعة القماش القطنية الناصعة البياض التي لم تر لها مثيل ، ثم اقتربت من المرأة و وضعت صغيرتها على صدرها ، و ياله من جمال انغمس فيه نور الطفلة جمال يمكن أن يضاهي القمر .

بعد لحظات وضع لها أشهى و أطيب المأكولات فترددت في أكله لكنّهم خبروها مؤكدين لها أنّه أكل أدمي. فبعد أن اطمأنت لهنّ ، تناولت الأكل وما إن أكملته حتى أحضروا لها حقيبة مليئة بالأقمشة الحريرية بمختلف الألوان ومختلف قطع الصابون ، وقارورات العطر البهية الرائحة ، وقطعا نقدية تكفي لستر الحال لشهور .

ثم اقتربت العجوز منها فانتبهت قرمية أنها أخطأت تعريفها في كونها عجوزا لأنّها عندما تأملت تقاسيم وجهها لم تجد أي تجاعيد ، وخصلات شعرها مليئة بالحياة وما حكمها ذلك إلا لأنّها كانت تلبس لباس القبائلية العجوز . فعصبت عيون قرمية معتذرة و مشاركة الجميع شكرها على إنقاذ ابنتهم ...وبنفس المدة الماضية وجدت قرمية نفسها في نفس

المكان الذي عصبت لها العجوز فيه وترافقت معها إلى القرية وبعدها اختفت .

مضت السنوات لتقرر قرمية تزويج أخر أولادها عامر الزيجة الخامسة له وهو الذي لم يتجاوز الثلاثين ، وقد وصل إلى هذا المعدل من الزيجات لخسارته المتتالية لزوجاته عند أول مخاض لهن ، ما جعل عمل قرمية يزول بعد أن فقدت ثقتها بنفسها وبالتالي ثقة الناس بها، وقد تمّ الزواج بوهيبة وهو الزواج الذي تمكن من المحافظة عليه لأكثر من عشر سنوات لكن بدون أن تنجب له أي طفل ، وحين يأس من إمكانية إنجابها منحها الطلاق ،وبعد سنة من ذلك حملت بين أحضانها طفلا .

تراخ عامر عن الزواج رغم إلحاح والدته التي تذكرت مع مر كل تلك السنين حادثة الجنية التي أنجبت على يدها ابنة في كمال القمر وذلك عندما كانت تعيد ترتيب ذكرياتها القديمة ، فبعد مجمل كل تلك الذكريات تفطنت قرمية إلى رابط ما حدث مع ابنها عامر بحادثة الإنجاب تلك فما كان لها إلا أن توجهت إلى أحد المشايخ "طالب القرية " وقصت له ما حدث لها منذ سنوات و ما يحدث لابنها الآن .

فكان أن أخبرها الشيخ أن هناك رابط قوى بين الحادثتين لأنّ ما حدث لأبنها هو سبب عمل الجن والقريب إلى الأمر أن الجن العامر ببيتها له صلة بتلك الحادثة القديمة .

وأن هناك أمل واحد وهو أن تغادر البيت إلى بيت أخر لعلّ ابنها يتخلص من هذا النحس و أن عليها أن تملأ البيت ببخور قدمه لها .

وقد كان ذلك ... غادرت البيت إلى بيت جديد لتنقض حياة ابنها ، مطبقة نصائح الشيخ و شيئا فشيئا نصحت ابنها على إعادة تجربة الزواج ، فتزوج من عافية التي كانت في بداية زواجها تطبق تعاليم قرمية في ممارسة طقوس البخور فتمكنت من أن تحمل طفل عامر داخلها .

في شهور حملها كانت حين تستيقظ صباحا تجد نفسها نائما في جانب بعيد من زوجها ، و الغريب في الأمر أن عامر لم ينتبه لذلك أبدا ، ولم يتذمر حتى أنّه حين كان يستيقظ يقترب منها و يدعوها لتعود وتنام إلى جانبه لينعم يدفئها الذي تسقيه به ليلا ، وذات ليلة نست فيها طقوس البخور وتحديدا بمنتصف الليل ، استيقظت فزعة لألم في خصرها ،

وحين وجدت نفسها بعيدة عن فراشها ، عادت لجانب زوجها ، بعد أن أخذتها غفلة نوم عادت واستيقظت فوجدت نفسها بعيدة عن فراشها . فعادت من جديد واستمر ذلك الليلة كلّها إلى فجر ذلك اليوم ،وبأخر مرة تعود فيها لفراش زوجها يستيقظ الجميع على صراخها وألمها ضانين أنّه الم المخاض ، لكنّ الأمر لم يكن كذلك فهي في شدة الألم تلك كانت تتعرق فاقدة السيطرة على رعشة جسدها والبكاء والصراخ دون انقطاع ... استمر ذلك لأيام وحين كانت تتحسس قرمية نبض الجنين داخلها لا تشعر بنبضه ، فتأكدت آنه فارق الحياة ومع محاولاتها لجعلها تتخلص منه لم تستجب زوجة ابنها فبقي الطفل داخلها لينتهي الأمر بها مجنونة تائهة بذهول عبر أحياء القرية ، وتكون الجبال الحاضن الوحيد لها لم تنل التربة قسطا منها، إلا بعد أن تغذذت الطيور الهائمة بجسدها واستمدت الحشرات الغريبة طاقة كافية لتتكاثر وتعود أدراجها لموطنها الذي لا يعرفه أحد إلّا خالقها ، أما ما تبقى فقد وري تحت التراب من قبل عابر طريق قيل أنّه دفن محبوبته التي عاد لأجلها بعد طول سنين ...وكالعادة ولحاجة الإنسان للمحبة غار من بالقرية

من امرأة مجنونة لم يقدروا على السيطرة عليها وتركوها تموت بأظلم طريقة ، غيرة من جسد أخذ كل مخلوق منه نصيبا لأن الله كرم روحها وهي ترى محبوبها يواريها الثرى ، ذلك المحبوب خدعه والدها حين اشترط عليه مهرا غاليا لعلّمه أنّه لن يتمكن من توفيره ، فحمل ترحاله لأجل أن يجد سبيلا لتوفير المهر ، مضت السنوات وأخباره منقطعة على والدته التي حرمت من ابنها بسبب طمع أب ، وحين عاد وهو يقترب من قريته وجد جسدا أخذت الطبيعة منه كل جهد وتركته منحلا ، فدفنه بكل رحمة ، وحين عاد لأهله أخبروه أن الذي دفن هي محبوبته التي تغرّب لأجلها.

بين الجبال حادثتين مرتبطتين في الذاكرة ، فحيث خرجت روح عامرة زارت قرمية ذلك القوم منذ سنين ، ما جعلها تهرول للشيخ وتقص له ما حدث،فأخبرها وذلك بعد أن أتى للبيت وحاول التواصل مع الجن العامر عندهم ، أن الذي حدث هو أن الجنية التي ساعدتها قرمية على الخروج إلى الحياة رافقتهم إلى هنا لأجل ابنها وحين نسيت عامرة طقوس البخور بينت غضبها ، لأنّها ذاقت ذرعا بغربتها في

هذا البيت الذي رجت من ساكنه أن يمنحها زاوية فراش عامر لأنّها أحبته ولا تقوى على فراقه .

فشل الشيخ في إخراجها ، حاولت قرمية مغادرة البيت لكن عامر رفض ذلك ، وبقي يعيش مع الجنية التي أحبته سعيدا سعادة جعلت من والدته تستسلم لهذه العلاقة وترضى بها ، لأنها سعادة رافقته دون انقطاع إلى أن وافته المنية.

لم يجد أحد ما يسأله للخالة لأن النوم بدأ يغزوهم . ولولا ذلك لوجدت نفسها تحكي لهم عن علاقة الحب بين عامرة وعابر السبيل ، وهي الحكاية التي سيخطون تفاصيلها إما في سمرهم مع الوسادة ، أو في جلسات سمر أخرى، ونام الجميع إلى اليوم التالي الذي احتضن أحلى الأهازيج لفرح عمر وعفاف.

في مناسبات كهذه رغم أنّ الجميع ينغمس فيها متناسين همومهم إلّا أنّه ما من أحد يغفل على تنصيب نفسه ملاحظا لمدى نظام الحفل ، وتقدير إمكانياته وطبعا دون الاهتمام نهائيا لجمالياته التي عكف أهل العرس على توفيرها لشهور وربما أكثر .فيكون هناك حتما لائحة ضخمة من النقائص

التي تباشر النساء في نشرها أثناء الاحتفالات وبعدها ، وكلّهن إصرار على أن تصل للمعنيين ، الغريب ليست نيتهم إغضاب أحد بقدر ما هي عادة توارثتها الألسن ،عادة في نقد الأكل والشرب ونظام الحفل ومقدار جهاز العروس ، حتى أبسط التفاصيل في أن العروس ابتسمت أم لا ، كيف نظرت لها حماتها وكيف تعاملن أخوات عمر معها ...

والحقيقة المطلقة أن عفاف في بيت زوجها وستكتمل الساعات ولن تكون إلّا في دفتر الذكريات... ولمسة الحفل حضور جهيدة التي ربما وبغير إدراك منها وضعت احتمال أنّه كان من المفروض أن تكون نجمة هذه الليلة لأنّ كلّ تفاصيلها كانت حلما تقاسمه عمر لها بالوعد ، و لكنّها مقادير القدر وسرعته في رسم دروب الناس ، لم تكن حزينة طبعا فهي لا تزال ملكة فهد التي لم يملّها أبدا لكنّه عنفوان كلّ امرأة في إطلاق العنان لمخيلتها في أن تكون هي وحدها الأميرة في كلّ الليالي.

سكنت الأهازيج ومرّت الأيام والشهور ليبشّر عمر بأنّه سيصبح آبا بعد عدة شهور ، لذلك هو ينتظر أبوته كما ينتظرها الجميع بكل رضا ، لأنّ هذا المولود هو الحفيد

الوحيد الذي سينتظره هارون وخديجة في بيتهما رغم العدد الكبير من الزيجات التي كانت لأولادهم ، لأن الجميع عنونوا لحياتهم بداياتهم الجديدة بعيدة عن بيت الأهل لتيسر الحال للجميع ، وفي بهجة الانتظار تلك تمّت خطبة زينب ومباركة والصائفة القادمة موعدهما للانتقال إلى الحياة الزوجية ، ورغم الارتباك الذي سببته هذه الخطبة فمحور الاهتمام الحفيد المنتظر ، لأنّ قدومه سيمكن هارون من أن يدرك دون اعتراف أنه منح اللقب الثاني في حياته العديد من المرات لكنّ هذا الحفيد سيلازمه دائما ، وسيكون عليه أن يتحمل عبأ مهام الجدّ لأنّ حفيده سيكون معه تحت سقف واحد وبالتالي هناك صراخ في منتصف الليل بالتحديد ، وسيكون حفيده قناصا حقيقيا في اصطياد أهم اللحظات التي يزعج فيها جدّه في لحظات قيلولته ، ودون أن يسرع إلى الأيام التي سيخرب فيها كل شيء يخص جدّه بالتحديد ، سيكتفي بمرحلة الصراخ المتواصل التي ستفسد تاريخ النظام في حياة هارون وأميراته .

العائلة مجتمعة تحت أشجار المشمش ببستان العم لأنّها أيام ربيعية خلابة لم تعتد العائلة على تضييعها ، وهذه المرة كان

بإلحاح من عفاف التي لطالما أسرها اللون الأبيض للأشجار ، اللون الذي ينتظر نسمة إلهية ليسقط ذليلا وفق وقع هادئ ، لموسيقى تصنعها زهرات خفيفة الحجم، وتركّن للأرض لتصبح بعد مدة غبارا غذائيا لبقايا النباتات ، بينما يغزو اللون الأخضر كل الأغصان .

الكل فرح منبسط ، الأطفال يلعبون ، هارون وأخيه منغمسين في لعبة الديمينو، وشباب العائلة ملتّف عليهما ، منهم مشارك ومنهم من ينتظر دوره ، كمال وابني عمه مصطفى ولحسن منشغلون بجهاز الأيباد وفي تنزيل أحدث البرامج الإلكترونية .

وزينب ومباركة منشغلتين بهاتفيهما وتلقي المكالمات الهاتفية من زوجيهما ، أما عائشة فلم تتحدد ملامح حياتها بعد لكنّها لا تزال وبلا منازع أميرة بيت هارون التي لا يمكن التسلّل لعالمها أبدا .

لكنّ الذي لم يكن منتظرا تعداده في عائلة هارون هو ابن عمر ، الذي جعل من أمّه عفاف تنسى هدوءها وتعبها فتصرخ مخبرة من حولها أن ابنها يريد مجيئه للحياة ، في

جلبة صراخها وصراخ بقية النساء نقلت إلى المستشفى بسيارة هارون.

مضت ساعات تعدَ اليوم ليكون أكرم في سريره ببيت جده ، والجميع سعيد جدا لأنّ هذا البيت قد فتح أبوابه لحياة جديدة افتقدوها منذ ميلاد عائشة ، وهاهو الكبش الذي اشتراه هارون منذ أن علم بقدوم حفيد له يحرس أيامه الأخيرة ،بينما يتفنن هارون في العناية بسكين النحر الذي هو الأخر لم يكن بمال جيبه ، بل جيب أولاده الذين يحرصون دائما على كل مناسبة تجمعهم ، وهذه المرة لن تتمكن كل العائلة من الحضور لأنّه موسم دراسة ، وكلّ له أشغاله لكنّهم لم يغيبوا فرصة الاحتفال بمرور أسبوع على ميلاد أكرم .

ذبح الكبش وسلخ وعلّق على شجرة الحوش ، فتمتع الذكور بمراحل الذبح أما الإناث وفي مقدمتهم عائشة تابعوا مراحل توديع الكبش لحياته بداية برؤية السكين وتغير سحنة وجهه إلى قراءة الكمّ الهائل من الأحزان في عينيه ورغبتهن في تخليصه من كل ذلك العذاب ... وهاهو رأسه يوضع من قبل خديجة على النار لتختفي بقعة الحناء التي أجادت هي بنفسها في وضعها ليلا كما العادة مع كبش العيد ورغم

تراجيديا الحزن هذه لم تتردد إحداهن في أخذ نصيبها من اللحم فوق أطباق الكسكسى التي اجتمعوا عليها ليلا .

وكعادتها بقعة الدواليك تلك بهدوئها ، تخفي الكوارث ولا تظهرها إلا حين تفقد السيطرة عليها لأنّه وبعد أن ابتهجت القرية بزفاف زينب ومباركة ومضت ثلاث سنوات ، اتضحت الغيمة السوداء التي كانت تخفيها عفاف عن الجميع مع أنّه طبعا هذا الأخير يعرفها لكنّه أجاد التعايش معها ، وعفاف لم تتأفف بل كانت تحاول مرارا إزالتها لكنّها فشلت لأنّ عمر لم يكن مدمن ليلة حينية بل منذ زمن وربما منذ فراقه لجهيدة ، لأنّه كان يغيب ليال طوال ويعود ولا يلام لأنّه ذكر راشد وما دام ينكر إدمانه فهو ليس مدمنا .

بدأت صحته تضعف في هذه الفترة ، فازداد قلق عفاف وسعت لطلب المساعدة من أهله وذلك بعد أن فشلت في

مساعدته ، هنا مارس هارون بعض طقوس الأبوة في كونه فرض شيئا من حظر التجول على عمر ، وفي مرحلة ما أجبره على وضع راتبه عنده ، لكن كلّ ذلك لم يجدَ لان هارون لم يجد في حياته رقابة دائمة لأولاده فترك ابنه في حال ضياعه فهو رجل وسيدرك أخطاءه فيعدل عنها .

كانت ليلة باردة على عمر الذي كانت مختلف الأغطية تكوم عليه ، لتضطر عفاف تحمّل حرارة الغرفة لأجل زوجها وهما في عزّ أيام الصيف ، في تلك الأثناء يصل لعمر رسالة على هاتفه الخلوي بعد وابل الاتصالات من صديقه يحي ، فتمدّ عفاف يدها نحو الهاتف وتقرأ الرسالة وقد كان محتواها يحث عمر على الذهاب لأجراء التحاليل بكلّ طمأنينة لأن يحي حصل على التحاليل التي قام بها وهي إيجابية .

سكنت الحمى لهدوء الفجر ليغفو عمر مرتاحا وكذلك عفاف التي لم تلق بالا لمضمون الرسالة إلى أن لامس ضوء النهار عينيها ، وهي تستيقظ على حركة عمر وهو يجهز نفسه للخروج.

ـ أنت بخير ؟

ـ أجل، أنا ذاهب للعمل

ـ لقد اتصل يحي بك مرارا ليلا وحين يأس من ردك كتب لك رسالة .

وقد حاول إخفاء ارتباكه

ـ ماذا ؟ ، وهل قرأتها .

ـ منذ متى أتدخل في أمورك.

تناول عمر هاتفه وخرج دون أن يضيف شيئا ، أما عفاف حاولت الإصغاء مرارا لدقات قلبها التي تخبرها أن عمر ليس بخير ، ونفسها التي توجهها إلى ذلك المرض لكنّ الذي استسلمت له هو نداء الوسادة في أن تعود وتكمل نومها.

بينما عمر فهو يجرّ خطواته المرتبكة ليقف في موقف السيارات ليركب إلى المدينة ، لم تكن هناك أي طاقة لفكره أو ضميره للكلام فهو يتوجه حيث ألحت عليه رسالة يحي لإجراء التحاليل ، ركب السيارة ومسافة نصف ساعة توقفت قدماه عند باب مخبر التحاليل وهو يحمل الرسالة التي قدمها له الطبيب لإجرائها ، محاولا طمأنة نفسه في أنّها تحاليل روتينية ، دخل المختبر وهناك أخذت له عينة الدم والغريب

أنّها أخذت هذه المرة بكامل الاحتياط ، هناك خطب لكنّه لا يحاور نفسه البتة به ، حمل نفسه وذراعه لا تزال مطوية وخرج مسرعا لا يريد النظر وراءه لأن تخمينه مرات يخبره أن الجميع يعرف مصابه وذلك مصيبة .

عادت به الذاكرة إلى أسراره القذرة ، إلى أيام السهر وتعاطي الممنوعات التي لحدّ الساعة يظن أهله أنها مجرد أكواب خمر مع الرفاق ، لكنّ الذي كان يحدث هو تعديلات للدماغ بالحقن وغيرها من الابتلاءات ، وتذّكر أنّه ربط مرضه بالحقنة المستعملة التي تشاركها ويحي في إحدى السهرات ، لكنّ مهلا يحي غير مصاب أيعني ذلك أن عمر كذلك ، وهو يخطو خطواته المتسائلة لاح بصره لشابة تجلس مذهولة بكرسي بقارعة الطريق ، وهذه الفتاة هي من مقتنيات الماضي ، أقترب منها بحذر وذلك بعد أن نظر من حوله جيدا .

ـ سعاد .

استدارت الشابة

ـ عمر ، ماذا تفعل هنا ؟

ـ سؤال موجه لك .

سعاد دون أن تجيب أشارت لمخبر التحاليل بنظرة كلّها انكسار وانصرفت.

خارت قواه وجلس بالكرسي وتمّ الاعتراف داخله بأنّ البلاء حاصل ،سعاد والخطيئة هذا الذي حدث ولم يشاركه يحي في ذلك ، تذكر أنّه وقبل شهور استسلم لنفسه الثملة وقضى ليلة حب مع سعاد التي كان من المفروض أنّه قاوم إغواءها لأجل عفاف ، تذكر أنّه ركن لها كلية ، وأنّه كان هناك وعد بينهما بأن يلتقيا مرارا لولا المرض الذي أربكه وحالة الاستنفار القصوى التي أعلنها يحي لمجرد شكّه ، فوجد أن جسده تشتت بين حقنة مخدر وأكواب الخمر وجسد مثير نال منه كل رجل التقاه مطلبا .

لم يعد هناك مجال للشك عاد أدراجه لبيته ولأنّه ابن بقعة الدواليك تلك غرَته نفسه وعاد لحياته الطبيعية مع زوجته ، التي أخبرها أنّه ذهب للطبيب وقد طلب منه إجراء تحاليل لدمه ، لأنّه ربط مرضه بكمية من السموم انتقلت لجسده لأنّه تناول الخمر على معدة فارغة ، وأن عليه أن يبذل جهده في

التوقف عن الخمر لأنّه أصبح خطرا عليه ، طبعا صدقته عفاف وفرحتها بقرار كهذا وفخرها في أن تكون سنده أعادت نفسها لبدايات زواجهما وجعلت من الليلة التي تمضي كلّها حب ورعاية جعلت من عمر يستمر في ظلمه لها حتى آنه تناسى أمر التحاليل .

وما فعله بعدها أنه ذهب لمخبر التحاليل وحصل على النتائج لكنّه لم يأخذها لطبيبه ، لأنه من معارف العائلة بل سأل في مكان أخر ، وكان أن تأكد أنه مصاب بالمرض ، لم يفعل شيئا غير أنّه مزق النتائج وانصرف لحياته ، وكان كل ما ينتهي من مضاجعة زوجته يصارع ضميره وهو يرى أنثى ناعمة وثقت به وذهبت كالطفلة تحقق رغباته فقط كي لا يعود لشرب الخمر ، حتى أنّها تخلّت عن عناية ابنها وتركته عند جدته خديجة ترعاه .

كذبة كهذه لن تخفى للأبد حتى وإن قام بكامل الاحتياطات في عدم انتشاره بجسده ، لكنّ حالات الحمى التي كانت تصيبه مرارا وتأخذ منها عفاف النصيب الأكبر دفع عفاف لتذهب عند صديقتها الطبيبة ، وتفحص نفسها لتطلب منها إجراء

تحاليل فورية ، وحين أخبرتها أن هذه الحمى تصيب زوجها ، أكدّت لها أنه ينبغي عليه أن يجري نفس التحاليل .

عندما وجد عمر نفسه في اللحظات الحرجة التي سيكشف فيها جرمه ، اختفى لأيام لتصارع عفاف الصدمة بمفردها .

مصداقية الطب تجبر الطبيبة الصديقة على قول الحقيقة المرة ، لكنّها هذه المرة لم تقدر على قولها بأريحية فالتي أمامها صديقتها عفاف ، التي كان أصدقاءها يرون فيها مصدر السذاجة ، السذاجة التي جعلتها تحمل المرض من زوجها الذي تظهر التحاليل أنّه مصاب منذ شهور بمرض السيدا ، لكنّ الواضح أنّه يتلقى العلاج بمكان أخر ، أما هي فكلما زارت صديقتها خبرتها أنّها تقف لجانب زوجها لأنّه قرر التوقف عن شرب الخمر . لكن شيئا من الغضب دفعها أن تقول لعفاف الحقيقة بكلّ قوة حتى تتوقف سذاجتها مع أن العمر ليس لها .

ـ عفاف ... أنت وزوجك مصابان يمرض الإيدز.

لم يكن من عفاف غير الصمت وما كان على الطبيبة غير الشرح والتوضيح ، في أن عمر أصيب بالمرض قبلها ،

وأعراض المرض لم تظهر لمناعته الأكبر ، وعفاف استمرت في استقبال المرض بجسدها بدون احتياطات ، الحصيلة أن الذكر في عمر استمد حياته من سذاجة المرأة في عفاف وهذه إحدى مسلمات بقعة الدواليك.

عادت لبيتها ولم تخبر أحدا ، وعاد عمر بعد أيام على اعتبار أن عفاف تجاوزت الصدمة ، اعتبارات ظالمة من فكر رجل ، فكر منذ الأزل يستمد طاقة جبروته من سذاجة كل امرأة في محبة رجلها ، وكانت عودته ليلا حين خلد الجميع للنوم ،عدى عفاف التي بمجرد أن تحسست دخوله ، أنزلت ملابس الخزانة وأخذت ترتبها ، دخل الغرفة بهدوء واقترب من عفاف ورسم قبلة على جبينها ، وأخذ جانبا من السرير لينام .

عفاف في غمرة الغضب القاتل.

ـ تنام ... لما فعلت ذلك بي ياعمر ... لما بالله عليك أخبرني ... لما شربت خمرا ... لما الحقن .. لما يا إلاهي النساء ... ألم أكن زوجة سرير ناجحة ... بليت بخطيئتك لما تجرني أنا ...أي أنانية فيك تضاجعني لتنقل لي المرض وأنت تعالج

نفسك ... ألسنا واحد ...أما كان ينبغي أن تصارحني... أو على الأقل تركتني أذهب لأهلي... أكل هذا رجولة ... لما لم تتذكرها عندما ذهبت لمضاجعة الساقطات .

ـ عفاف لم أضاجع أحدا غيرك انتقلت عن طريق الحقن.. ثم ..

ـ كفاك كذبا ... أنا أموت يا عمر .. ستعيش أنت ، وستتمكن من أن تختار غيري ، كان يمكن لك أن تمنحني خيار الحياة حتى بمفردي... المهم أن أعيش بحياة ابني ..

ـ هل أخبرت أحدا ؟

ذهلت عفاف لسؤاله ، وما كان لها إلا أن جمعت حاجاتها بحقيبتها وانصرفت ليلا ، حاول منعها لكنّها هددته أنّها ستصرخ إن لم يبتعد .

لازال عمر يرفض الاعتراف بجريمته ، حين سأل أهله عن عفاف في الصباح أخبرهم أنّه أخذها منذ قليل لأهلها لأنّ والدتها متعبة ، وخرج دون أن يعلم أن هناك من سمع حديثهما كلّه الليلة الماضية وهي مباركة التي خرجت لتحضر الماء لابنها الصغير ، وما إن خرج حتى قصت الكارثة على أهلها .

فأرسلت خديجة ابنتها مباركة لتتقصى حال عفاف ، وحين ذهبت لأهلها لم تجدها هناك وفي طريق العودة التقت بها ، فعادتا معا أدراجهما وحين دخلتا استغربت العائلة الأمر ، فأخبرتهم عفاف أنّها أخبرت مباركة أنها متوجهة هنا لكنّها في الطريق تذكرت أن لها أمرا أخر تقضيه ، دخلتا غرفة عفاف الغرفة التي لم يغير أهلها فيها شيئا لأنّها الابنة الوحيدة في العائلة بين الذكور ، وهي غالية جدا على أهلها لكن عمر لم يقدر ذلك ، وهذا ما سعت عفاف لتبينه لمباركة التي انصرفت لأهلها .

انصرفت مباركة ليجد أهلها حلا في ستر هذا العار وهم يخططون لذلك متغاضين عن ألم عفاف ، يقررون كيف يعيدونها ليسيطروا على حجم الفضيحة ، بينما عفاف كانت تصارع المرض لتلك الأيام وتحاول إخفاءه على أهلها لكنّ أخاها الطبيب لم يتردد في أخذها لعيادته والقيام بالتحاليل اللازمة ، التي بينت له أن أخته مصابة بالمرض وهي تصارع شهورها الأخيرة ، حين واجهها بغضب ليس لشكه أنّها زنت معاذ الله بل لأنها أخبرته تفاصيل المرض ، جنّ جنونه وكان كلّه عزم على فضح حقارة عمر لكن طبعا هو

الأخر ابن بقعة الدواليك ، ودرأ للفضيحة اكتفى بمنع عفاف من العودة لزوجها ، والجميل في الأمر أنه أحضر أكرم وأجرى له كامل التحاليل والحمد لله لم يأخذ نصيبه من المرض .

أصرت عائلة عفاف على انفصالها وذلك في محاولة عائلة هارون لإعادتها وتخطي المصيبة ،لأنّه من غير المعقول تركها تموت عند أهلها ، وسبب موتها يجب وبأي طريقة ألا يشيع خبره لأنّه وبكل بساطة لازال لدى هارون بنات للزواج ، وكذلك إخوة عفاف المقبلين على ذلك ، حاول أخاها الطبيب علاجها بالمنزل لكن المرض بدأ ينتشر ، أراد أهلها بحب أن تموت عندهم ، لكنّها وكشيء من العقاب جمعت نفسها وخرجت دون علمهم وعادت للبيت الذي قضى على حياتها .

يا ترى من يكتب المقادير ويطوي صفحات الناس في الدنيا ، أهم الناس في حدّ ذاتهم لأنّهم يوما حملوا مسؤولية الكون حين سأل الله عن من يحملها فيسيرون بذلك أقدارهم وأقدار الناس ،أم أنّها قدرة الخالق هي العليا ، فلم يترك لأحد هذه الفرصة لأنّها لو كانت تركت لهم لانقرضت البشرية منذ زمن

... عمر بتصرف أناني مهما وجدت له الأعذار فلن يغفر له إلا من قبل من خلقه ... تشارك مع عفاف الحب وبعدها الأحلام ليبنيا بيتا وبعدها يمارسان طقوس الأبوة ... وتحويه عفاف بكل أخطاءه فهي ابنة بقعة الدواليك ... وبكلّ امتلاك حقير قرر أن يقاسمها المرض فهي زوجته ورجولته ستنهار إن علمت بمرضه... فكان لها أن تشاركه المرض بكل مصداقية وعمق لأنّها ستموت قبله أما هو فله حياة طويلة ... وبهذا خطط لقدرهما وهاهو الآن لجانبها بعد أن أعطاها الدواء الذي يخفف ألمها ...

لم يكن هناك كلام حتى أن عائلة هارون تحضر بكل صدق ما تحتاجه جنازة عفاف ...حتى أن عمر حين دخل منذ برهة دخل وبيده كيس وضعه تحت السرير بسرعة...حتى لا تسأله عفاف عنه وهي التي فقدت صوتها منذ أيام لكنّها تعلم ما داخله أولم تمت هي منذ زمن وروحها تنتظر أن يوارى الجسد تحت التراب ، وهو جالس بجانب من السرير سألها وهو يعلم أنها لن تجيب .

ـ عفاف هل ستسامحينني ؟ وهناك عند الخالق هل ستنتظرينني لأكون زوجك مرة ثانية ؟

هو يعرف أن بهذا السؤال أصبح أكثر قذارة ، فبأي عهد ستنتظره ، وهو الذي جرّدها من الحياة بعنوة فأبعدها عنه وعن ابنها وكل من انتمت لهم يوما .

خرس الاثنين كلاما وحركة . وهو ينظر لها ابتسمت وأومأت له بكونها ستنتظره ، ولأنّهما معا ولوحدهما بكى عمر كثيرا ومرغ رأسه على كتفها وهي لا تسمع إلا لشهقاته ، وحين جفت الدموع عاد وانحنى بجانب السرير ينظر لها ، استسلمت هي للنوم ولا تدري كم من الوقت مضى ، وقد أتت خديجة وأيقظتها لأنّ والدتها أتت لزيارتها ، وهي تحاول منح القوة لعينيها لتستيقظ مدّت خديجة يدها نحو ابنها لتوقظه ... لم يستيقظ .

والدة عفاف .

ـ قتل ابنتي وينام براحة بال .

وعدّلت نفسها لجانب ابنتها ،خديجة مرارا وتكرار تحرك كتف عمر ليستيقظ

ـ ليست راحة بال يا أم هاني ... ابني لم يذق النوم منذ ليال طوال وهو يهتم بابنتك .

والدة عفاف وهي منتفضة.

ـ بعد ماذا بعد أن قتلها ؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

بدأت عفاف تسعل مختنقة ، قربت لها خديجة كوب الماء لتشرب ، وما إن أمسكته حتى شعرت خديجة بانزلاق شيء من ابنها نظرت له وإذ بالذي انزلق يده ... أمسكتها وتحسست نبضه فلم تجد للنبض موقعا ، أشعلت مناحة بالغرفة اجتمعت بناتها حولها ودبّت الفوضى بالبيت ودقائق حتى عمّت بقعة الدواليك التي لم تجد ما تقوله على لسان ساكنها إلا "أن الله يريد ونحن نريد وهو فعال لما يريد ".

وهم عائدون من زيارة الجمعة التي أتت بعد أربعة أيام قضاها عمر تحت التراب وحيدا ، عائشة وهي لا تزال تبكي أخاها سألت والدتها .

ـ أمي ألم تقولوا أن عفاف هي من ستموت ، فكيف مات عمر ؟

ـ مات عندما أتت ساعته.

عائشة لم تكتفي بالإجابة.هرولت نحو والدها تسأل ، فأجاب .

ـ عمر سبقها ليبني لها بيتها بالجنة .

لم يجبها أحد عما تسأل إلا الحوارات الطوال التي دارت داخل السيارة ، فتعلم أنّه مات إثر سكتة قلبية والفظيع في الأمر أنّهم ساخطون على عفاف التي وحسب زعمهم لم ترتح إلّا عندما وارته تحت الثرى وقد أصرت على حضور جنازته .

دخلوا بيتهم ولم يفكر أحد في تفقدها ، وكلّ الذي أتى منهم أنهم أرسلوا عائشة لتفعل ذلك ، دخلت الغرفة واقتربت منها وهي تتأملها منغمسة في نوم عميق فخرجت وأغلقت وراءها الباب ، وبعد أن تناولوا غداءهم وفي حالة الحركة في استقبال المعزين اقتربت عائشة من والدتها .

ـ أمي لقد تذكرت اليوم جميلة ، هل يا ترى التقى بها عمر ؟

ـ طبعا سيلتقيان .

ـ نوم عفاف اليوم ذكرني بجميلة وهي نائمة بسريرها .

عائشة لا تزال ساذجة وهي فقط تكتشف نفسها في بداية مرحلة المراهقة ، أما نومة عفاف التي فهمتها خديجة هي تلك النومة التي هدأت فيها أسارير عفاف وفضحت توقف تدفق الدم بجسدها ، فهي الأخرى كانت كالأميرة في هودجها لكونها لم تكن تقلّ جمالا عن جميلة لولا المرض الذي شوه تفاصيلها ...

ماتت عفاف ووريت تحت الثرى بجانب عمر ،لأنّ مقبرة بقعة الدواليك لم تستقبل ميتا بينهما ، فشعرت عائلة هارون بشيء من تأنيب الضمير على كلامها بالسيارة ، فبكتها أضعاف ما بكو عمر ، وبذلك وبكل دفئ حتما احتوت تربة المقبرة جسديهما لأن الأسبوع كان أسبوع نعم على الأراضي الزراعية ببقعة الدوليلك، لهطول الأمطار الغزيرة التي افتقدوها منذ زمن.

أما بعد موتهما فقد استقبلت المقبرة العديد من أجساد الموتى بشكل متتال فقد توفيت والدة زكرياء سعدية التي لازمها المرض شهر قبل وفاة عمر، وكذلك حارس البلدية الذي شاءت الأقدار أن يبيت أخر ليلة له ببيت ابنه حمزة وغيرهم من الناس الذين أرادت بقعة الدواليك أن تكون

حياتهم عادية ، ليموتوا بسطاء جدا دون أي ذكر لهم ، أما بركاهم فقد استقلت أول حافلة من مدينتها لتأتي وتعيش مكان سعدية لكنّ الله لم يمنحها ذلك الشرف فقد انقلبت السيارة التي كانت بها بمنحدر القرية وقدرة الله أكملت تحطيم مخططاتها فهي دفنت بعيدا عن سعدية .